نرجس

رواية

مؤمنة محمود

رواية نرجس

مؤمنة محمود

تدقيق لغوي

عبد الله راتب نفاخ

الإهداء

إلى الرفيق الذي تأنس به الروح

أشعر كلما لمحتُ وجهك أن الحياة أصبحت تُرضيني بواسطتك

شكراً لوجودك جوار قلبي

إلى سامح الصديق والرفيق والكتف.

زهرة النرجس واحدة من الزهور المنتشرة في بلاد الإغريق منذ أقدم العصور. شدّت انتباه الرجل الإغريقي بمنظرها الجميل وطابعها الحزين. نُسجت حولها قصة ظلت تتناقلها الأجيال جيلًا بعد جيلًا.

مقدمة / أسطورة نركسوس/ النرجسية

نشأ نركسوس الجميل في أحضان المياه الجارية والمروج الخضراء. لم يره إنسان أو إله دون أن يعجب بجماله. تخطى نركسوس مرحلة الصبا، أصبح في ريعان الشباب، كان يزداد جمالًا وبهاءً كلما تقدم في العمر، أحبه رفاقه وأصدقاؤه وأعجب به الذكور والإناث، كان مدركاً لجماله وإطلالته الجذابة، يعرف أنه جدير بإعجاب الجميع وحبهم، لكنه لا يتحاب مع أحد من

المعجبين به، كان يصدهم جميعاً، لم يكن يعرف الحب ولا يقيم للعواطف وزنًا، لكنه مع ذلك ظل محط أنظار الجميع، ومركز إشعاع للسحر والفتنة.

أعجبت بجماله حورية تُدعى إيكو، وهي كلمة يونانية معناها الصدى، إيكو فتاة رائعة الجمال فائقة الحسن. كانت متحدثة لبقة، طليقة اللسان وبارعة في القول، قبل أن تُعاقبها هيرا زوجة زيوس (كبير آلهة الإغريق) فتحرمها حلاوة الحديث والقدرة على الكلام. لم تعد إيكو قادرة على المبادرة في الحديث. تستطيع فقط أن تردد بعض المقاطع الأخيرة من العبارات التي ينطق بها المتحدث.

ظلت إيكو تعيش وسط المروج الخضراء، ألفت حياة الصمت واعتادت عدم المبادرة بالكلام، كانت تزداد جمالًا وحسنًا بمرور

الأيام. أُعجبت بالشاب الوسيم نركسوس، كانت تراقبه في غدواته وروحاته. تتبعه بنظراتها وهو يلهو ويمرح بين رفاقه. لم تكن تجرؤ على الاقتراب منه، تعرف أنه شديد الزهو بجماله، تعرف أنه لم يجرب نار الحب، كانت تعلم أنه لا يستجيب لعبارات الغزل، لا يستمع إلى أحاديث الحب، كتمت إيكو سرَّ غرامها واكتفت بمراقبته.

في ذات يوم خرج نركسوس بصحبة أصدقائه للصيد كعادتهم، أخذوا يتجولون وسط المروج الخضراء بحثًا عن فريسة ضالة يرشقون صدرها بسهامهم القاتلة، ظهرت أمامهم فجأة عدّة فرائس، انطلق الرّفاق خلفها وتفرّقت الفرائس، اتّجهت كلّ فريسة في طريق، تفرّق الرّفاق على الفور، أخذ نركسوس يطارد فريسته في سرعة هائلة، وظل يطلق سهامه القاتلة نحوها، وقد أصابها

في مكان قاتل وأصبحت ملك يديه، وقف ينتظر رفاقه ليشهدوا ببراعته في الصيد، لم يحضر أحد، ظل يبحث عنهم على ضفاف البحيرات. اكتشف نركسوس أنه ضل الطريق، وأصبح وحيدًا دون رفيق، لم يكن يُحسُّ بوجود إيكو ومتابعتها إياه طوال فترة الصيد.

طال تجوال نركسوس وتعبت قدماه، جلس يستريح على حافة غدير. جلست إيكو فوق ربوة عالية، تشاهد في إعجاب–حسنه وبهاءه. تنعم في صمت بجماله ووسامته، شفتاها ترتعشان من شدة الرغبة، قلبها ينتفض في صدره ويعلو ويهبط، كصدر صياد يلهث خلف صيد ثمين، حدثتها نفسها أن تهبط إليه، وترتمي بين أحضانه، لكنّ شجاعتها خانتها، تذرعت بالصبر، اكتفت بإشباع

عينيها، ظلت تلتهمه بنظراتها الجائعة وهو جالس على حافة الغدير.

طال انتظار نركسوس، لم يحضر أحد من رفاقه، نهض واقفًا على قدميه، أخذ ينادي بأعلى صوته، عسى أن يدركه واحد منهم، نفد صبر إيكو لم تحتمل أكثر من ذلك، أخذت تردد المقاطع الأخيرة من نداءاته التي لا تصل إلي آذان رفاقه.

ظلت إيكو تردد نداءات نركسوس، ظن واحدًا من رفاقه يرد عليه، بدت على ملامحه أمارات الفرح والسرور، انفرجت أساريره، ازدادت ملامح وجهه الجميل جمالًا، لم تستطع إيكو أن تظل في مكانها بعيدة عنه، بدأت في الهبوط نحو الغدير، اتجهت نحو نركسوس وهي فاتحة ذراعيها، انطلقت مسرعة

والابتسامة على شفتيها والرغبة ملء عينيها وهي لم تزل تردد المقاطع الأخيرة من نداءاته التي لاتصل إلى آذان رفاقه.

اقتربت إيكو من نركسوس فاتحة ذراعيها، تريد أن تحتويه بين أحضانها، قطّب نركسوس جبينه ونظر إليها في كبرياء وزهو وقال:

-لا أريدك.

-أريدك.

هكذا ظلت إيكو تردد المقاطع الأخيرة من كلمات نركسوس الغاضب وهي تندفع في سرعة هائلة نحوه، لكنه ابتعد فجأة عن طريقها في قسوة وغرور، عندئذ هوت البائسة على الأرض، ارتطم جسدها بالصخرة التي يجلس عليها نركسوس، لمس جبينها الناصع قدمي معشوقها القاسي، أحست إيكو بطعنة نافذة في

قلبها المفعم بالحب، نهضت تجمع أشلاء كرامتها المتناثرة، انطلقت تعدو بلا هدف بعيداً عنه.

جرح إيكو لم يندمل، لم تتوقف لحظة واحدة عن التفكير في كرامتها المحطمة وقلبها المجروح في المهانة التي لحقت بأنوثتها، لم تتوقف لحظة واحدة عن الحزن والبكاء، أصبحت مثار غضب الآلهة، وسخرية جميع أفراد البشر، لم تعد زميلاتها الحوريات يحضرن لزيارتها أو يرتضين مصاحبتها في نزهاتهن، اختفت إيكو بجسدها عن الوجود، لم يبق منها سوى الصوت: الصوت الذي يسمعه المتحدث مرددًا المقاطع الأخيرة لحديثه.

ازداد زهو نركسوس مع الأيام، وازداد اعتداده بنفسه، لكن أفروديت لم تكن تتخلى أبداً عن العاشقين المنبوذين، لم تكن ترضى أبدًا عن المتمردين على الحب، وعدتها بالانتقام من

نركسوس، وذات مرة، كان نركسوس يمارس هوايته المفضلة، أخذ يطارد فريسة ضالة، ويقذفها بسهامه القاتلة، قضى فترة طويلة يعدو تحت أشعة الشمس الحارقة حتى تعبت قدماه، اشتد به الظمأ، وفجأة وقع بصره على منطقة ظليلة يتوسطها غدير، اتجه في لهفة نحو الماء، كانت الأشجار الباسقة من حوله تغمر المنطقة بالظلال، اقترب من الغدير، انبطح نركسوس على الأرض الرطبة، مال بوجهه الجميل نحو صفحة الماء، شرب نركسوس وارتوى، كانت مياه الغدير صافية مثل مرآة لامعة، همّ برفع وجهه من فوق سطح الماء، فجأة رأى تحت الماء وجها بشرياً رائع الجمال، توقف نركسوس عن الحركة.

تحجرت مقلتاه وظل يحملق في العينين الجميلتين تحت الماء، لاحظ أنهما أيضا تحملقان في عينيه، ارتسمت على شفتيه

ابتسامة عذبة رقيقة، ارتسمت على شفتي الوجه الجميل تحت الماء أيضاً ابتسامة لا تقل عذوبة ورقة، أحس نركسوس بوخزة بسيطة في صدره لكنها لم تؤلمه، أحس برعشة خفيفة تسري في جسده، لم يحاول أن يعرف سببها، غادر المكان عائداً إلى بيته وهو يحس بشيء لا يعرف كنهه.

لم يذق نركسوس طعم النوم في تلك الليلة، لم يعرف النعاس طريقه إلى مقلتيه، قضى الليل ساهرًا، يفكر في العينين الجميلتين اللتين رآهما تحت الماء، غادر فراشه مبكرا على غير عادته، ذهب إلى الغدير وأطل بوجهه على صفحة الماء الصافي الساكن، رأى الوجه الجميل تحت الماء يطل عليه. انسحب إلى الوراء قليلاً، تراجع الوجه تحت الماء في نفس الاتجاه، لوَح بيده الجميلة، رأى تحت الماء يدًا تلوح له.

ظل نركسوس يتردد على الغدير في الليل وفي النهار، يلوح بيده لمحبوبته من فوق الماء، تلوح له محبوبته من تحت الماء، يحييها وتردّ التحية، يبثها عبارات الغزل الرقيق، تحرك شفتها فتصل إلى سمعه عبارات غزل مماثلة، يمد يده في الماء محاولاً أن يمسك بحسنائه، لكنّ صفحة الماء تهتز فتختفي حسناؤه على الفور، لذلك اقترب منها أكثر، يريد أن يعانقها ويقبلها، فوقع في البحيرة ومات فوراً.

لم يكن الوجه الجميل الذي رآه نركسوس تحت الماء سوى صورة وجهه الجميل تنعكس على صفحة الماء الصافي الساكن. لم يكن الحب الذي استعذبه نركسوس سوى عقاب أنزلته به أفروديت.

عاد نركسوس إلى الحياة في صورة زهرة مازالت حتى الآن تسمى زهرة النرجس (نركسوس).

أسطورة نركسوس التي تتناول زهرة النرجس الجميلة، التي تنمو قرب المجاري المائية، مانحة المناظر الطبيعية من حولها جمالًا وبهاء، التي يرى فيها الإنسان تعبيرًا عن الحزن. لقد رأى فيها القدماء نهاية كل شيء. كانوا يعدّونها رمزًا للموت والفناء. وبذلك أصبح نركسوس الفتى الذي عشق صورته في الماء بينما إيكو كانت تردد وحدها الصوت في الرياح والصحارى والظلام.

الشخصية النرجسية

اضطراب الشخصية النرجسية عبارة عن حالة مرَضية تؤثر في الصحة العقلية للمريض الذي ينتابه شعور مبالغ فيه بأهميته، ويحتاج إلى الاهتمام والإطراء من الآخرين على نحو زائد ويسعى إلى ذلك. قد يفتقر الأشخاص المصابون بهذا الاضطراب إلى القدرة على فهم مشاعر الآخرين أو الاهتمام بها.

كانت خساراتي متتالية، وكان الحبل قصيراً إلى الغاية، فلم أستطع أن أتمسّك بشيء. الآن أوقفتُ السعي، فقد فقدتُ الرغبة في المحاولة والاستمرار.

الجزء الأول

صرخوا كلهم بصوت واحد:

- حريق، حريق، اطلبوا سيارات الإطفاء.

- أسرعوا، اجلبوا المزيد من الماء.

- ابتعدوا عن الجدران الآيلة للسقوط.

- ألم يطلب أحدٌ النجدة؟

- كفاكم وقوفاً، ساعدونا، الدلاء فارغة املؤوها، ريثما تأتينا سيارات الإطفاء.

كانت ألسنة اللهب تتصاعد عالياً، من النوافذ، من الباب الخارجي، والدخان الأسود يتصاعد عالياً، لا شيء يحترق في هذا الحي القديم سوى بيت واحد مؤلف من طابقين، أرقى البيوت وأجملها.

جميع من في الحي فزعوا، كانوا خائفين من أن تمتدّ النيران إلى بيوتهم الفقيرة، فتحرق ما عجزت الحرب عن تدميره، ولاسيما أن جدران تلك البيوت مهددة بالانهيار في أي لحظة. لم يكفّ الجمع المتجمهر عن الصراخ، رجال، نساء، أطفال، شيوخ، والكل يتساءل عن مصير ساكنة البيت الكبير. أماتت؟ احترقت أم اختنقت، لا أحد يعرف عنها شيئاً.

شخصٌ واحد فقط استجمع شجاعته ودخل يبحث عنها ويناديها، لم يخف من الحريق ولم يبالِ بألسنة اللهب، لأن فيه حلماً جميلاً

رآه ذات ليلة صيفية، فتاة أغرم بها وتمناها عروساً له في شبابه. دخل دون أن يفكر بعاقبة ما يفعله، كان تفكيره منصبّاً عليها، كيف هي الآن؟

لا أحد يعرف سبب الحريق، ولم يجرؤ أحدٌ على الدخول. ألسنة اللهب تستعر في القماش، تحرق كلّ ما تصل إليه، تمتدّ دون استئذان كبركانٍ ثائر، يتصاعد الدخان عالياً، كأن ما يحترق إطارات سيارات، لا بيت آمن يتوسّط زقاقاً قديماً.

عاد مالك ينادي نرجس، صعد الدرج بحثاً عنها، يفتّش الغرف المغلقة حتى وجدها أخيراً، واقفة أمام مرآة جدارية في غرفة لم تقتحمها يد النار بعد، تودّع نفسها بكلمات تعزية مؤلمة، في عينيها دمعة فزع، وفي قلبها رجفة خوف، دخل الغرفة مسرعاً يلهث ويسعل، يكاد يختنق، ناداها فلم تسمعه، مازالت تحت تأثير

صدمة الخوف، لا تريد للحريق أن يشوّه جمالها، ولا تريد أن تموت محترقة، كرر اسمها، ولما لم تتجاوب معه اقترب وأمسك يدها محاولاً سحبها بسرعة من غضب نار لا ترحم. سحبت يدها منه وقالت:

- لا أرى ضرورة ملحّة لإمساك يدي.

صرخ بغضب:

- ألا ترين ما أنتِ فيه؟ ألم تستشعري بعد الخطر من حولك؟

- ولكن لا سبيل للخروج منها، نحن محاصران.

- سأساعدك، ثقي بي ولا تخافي.

- لماذا خاطرت بنفسك وأتيت إلي؟

– كي لا تموتي، لا أريد لك الفناء يا نرجس. ثمّ لا وقت عندنا لحديث لا فائدة ترجى منه، لنغتنم الوقت ونهرب من بطش النيران.

سحب يدها وركضت خلفه، ركضا مسرعين، فتباطأت، حملها وركض بها، والنار حوله مازالت تستعر وتحرق ما تمرّ به. النار قاتلة آثمة لا يعاقبها القانون، حرقت حلمها، حياتها، بيتها، مالها، حرقت كل شيء كانت تفخر به.

استطاع إخراجها من البيت المستعر بعسرٍ شديد. سخم وجهه وثيابه من الحريق، وهي كذلك. أجلسها أرضاً تحت عيون الجمع المتجمهر، غرقت في نوبة سعال حادة، ركضت إليها دارين، عانقتها شاكرة ربها على سلامتها.

تجمعوا كلّهم حولها، يحمدون الله على سلامتها ويواسونها ببعض كلمات العزاء، تبرّع أحد الرجال لأخذها إلى منزلهم كي تبيت فيه ريثما يرمم منزلها، وتبرّع ثانٍ وثالث وجميعهم أصبحوا كرماء معها. انتفضت النسوة على اقتراح كهذا، ورفضن ما حيك ضدّهن من مؤامرة خبيثة، فالنسوة يخفنها ولا واحدة منهن ترحّب بنرجس في ديارها كي لا تصبح بطلة في حياة زوجها.

جاءت أخيراً سيارة الإطفاء بعد أن خمدت النار وأحرقت ما أحرقته، جاءت لتطفئ لهيباً خمد، ولكن الدخان ما زال يتصاعد.

وقفت نرجس وأبعدت أيدي النسوة الفضولية، هربت من فضول رجالهن، ولم تهرب من فضول مالك، ظل يراقبها ومشى خلفها بطيئاً كمشيتها المملوءة بالفزع والخوف، لم تبك أمامهم، فهي لا تبكي أمام الغرباء ولا الأقرباء كذلك.

مشت في شوارع دمشق حافية القدمين، رديئة الوجه والثياب، غائبة الذهن، وهو يمشي خلفها حزيناً عليها، ودّ لو تمنحه فرصة لعناقها فيذيب عنها غبار الخوف، ولكن نرجس دائماً ما تبتعد عنه بسبب أو دون سبب.

دخلت مقهى لا يعرفه، اختارت طاولة في آخر المقهى، جلست تفكر فيما حدث، أسندت مرفقها على الطاولة، وغابت في عالم التفكير، كانت تتأمل ساعتها بين الفينة والأخرى، كأنها تنتظر منقذاً ينقذها مما هي فيه. لم يعد لها مكان يؤويها ولا مرايا تديم النظر إليها، ولا بيانو أو كمان تعزف عليهما ألحانها.

في جزء من الثانية خسرت كل ما تملك، نرجس التي وصلت إلى أعالي السحاب تسقط إلى أديم الأرض تحت أنظار الجمع الشامت بسقطتها، كانت وقعتها موجعة، أحدثت شرخاً كبيراً في

روحها. انسكبت دمعة، مسحتها بطرف يدها، وأقسمت ألا تدع غيرها تنسكب، فهي سند نفسها في جميع الأوقات الصعبة.

جاء زائرها أخيراً، شخص لا تعرفه، لكنه يعرفها، في ليلة صيفية حارة قاسية، جمعتهما طاولة ومقعدان، تحدّثت كثيراً فيما هو يستمع وينصت، تحدّثت عن حلمها الضائع، عن خيبتها التي لا تليق بها، عن كنانة الحياة التي دائما ما ترميها بسهام الألم فتصيبها في روحها. حكت كثيراً على أنها لا تعرف عنه شيئاً وهو يعرف عنها الكثير، لا تناديه سوى (الغريب).

تأمل مالك الجالس في أول المقهى الغريب وبدلته السوداء، كان يرتدي نظارة وقبعة سوداء، قد ناهز الخمسين في العمر. لم يستوعب العلاقة التي تربطها بكائنٍ غريب كهذا، لاحظ أن نرجس مستمتعة برفقته كأنه والدها.

حين انتهت من شرح ما آلمها قدّم لها العون والمساعدة، لم يخذلها يوماً، أعطاها ورقة فيها عنوان لفندق صغير، وطلب منها بحنانه المعتاد أن تذهب وتخلد إلى النوم وترتاح من الإجهاد الذي مرّت به، ريثما يرمم المنزل، وتعود إليه معززة مكرّمة. قالت بألم:

– الحريق أفسد نومي، ربّما نسيت كيف أغفو.

– سيمرّ ما يؤلمك كأنّه ما كان.

– هذا اليوم لن يلغى من روزنامة أيامي، سأظل أذكره كأنه حصل في التو، لم أفهم ما حصل هناك، فجأة رأيتُ ألسنة اللهب تسرق مني حلمي، وتقتل الأمل في أن أعاود الحياة مجدداً، كل ما أحببته في بيتي احترق كله، سرقت النيران سعادتي،

معزوفاتي، ألحاني، ثيابي، هشّمت المرايا، كأنها غاضبة مني وجاءت لتنتقم.

بكت نرجس ولكن دمعة واحدة فقط انسكبت، ولا تدمعها إلا في حضرة الغريب، أعطاها منديلاً، فمسحتها، يعرف أن هذه الدمعة غالية جداً عليها ولا تذرفها إلا لحادثة عظيمة، غادرها دون وداع كما جاءها دون سلام، وتركها وحدها تحصي نوبات ألمها.

ظلّ مالك يراقبها، ودّ لو اقترب واحتضنها، أو يسأل ذاك الغريب عنه وعنها، فما حكايتهما؟ هذه أوّل مرّة يلمح نرجس بهذه الهشاشة والضعف، حتى في المرة الماضية التي احترق فيها منزلها كانت أقوى من هذه المرّة، وهذا الغريب لم يلمحه معها من قبل، أممنوع عليه الاقتراب ومسموح لذاك الغريب فقط؟

غادرت نرجس المقهى ولم تنتبه لمالك، لأن ذهنها مشوّش، اقتربت سيارة منها، طلب سائقها منها الصعود ليقلّها إلى العنوان المذكور، صعدت بهدوء وانفرجت أساريرها، هكذا هي نرجس، لا ترضى أن تعامل إلا معاملة ملكة حتى في مصيبتها، أميرة جميلة دون أمير، لا ينقذها من مصائبها سوى الغريب.

دخلت غرفتها في الفندق، تأمّلت بساطتها، فتحت الخزانة فوجدتها مليئة بالثياب، كل ما فقدته عثرت عليه هنا على نحو آخر، حملت منامة جميلة وثياباً داخلية لطيفة، وهرعت بسرعة إلى الحمام لتزيل الدرن الذي لازمها، استمرت في الحمام قرابة ساعة وهي تنظف جسدها، وتعيد فعلتها مرة تلو مرة.

خرجت من الحمام، سرّحت شعرها الأسود الطويل أمام المرآة، وارتمت على السرير، ستنام وتغفو طالما هناك من يتكفل بأمرها،

أوصلت رسالتها لذاك الغريب بأنها مكلومة القلب والروح، وحيدة في ديار لا يرغب بها أحد، خارجة في التو من صدمة نفسية وعصبية حادة، وما إن غدت لوحدها حتى خلعت عنها رداء الحزن وارتدت رداء القوّة.

لا تعرف الحب ولا تكترث إن أغرم بها أي أحد، لا تبالي بمالك الواقف في الأسفل يتحرّق شوقاً إليها، لا تبالي بهذا الغريب الذي يسعى جاهداً لنيلها السعادة، ما يهمها ماله الوفير وحساباته البنكية، وليذهبا كلاهما إلى الجحيم.

كلهم في الحي يتساءلون عنها، إلى أين اتجهت؟ أين ستبيت؟ هل ستعود؟ من سيرمم لها المنزل؟ أثرية هي؟ لا أحد عنده أجوبة لكمية الأسئلة التي انطلقت من أفواه ساكني الحي.

عاد مالك ووقف أمام البيت المحترق يتأمل سحب الدخان الأسود، وبقايا بيت كان شاهداً على أنثى متمرّدة لا تستمتع إلى أحد، ولا يعنيها كلام أحد. بقي البيت واقفاً، واختفى ما فيه من سعادة وذكرياتٍ وأحلام وأوهام.

وقفت دارين بجانب مالك، تتأمل مثله آثار الحريق وتتأمل مالكاً الحزين وهو يدخّن سيجارته، هو في وادٍ غير واديها، يفكّر بتلك المتمرّدة وهي تفكّر به، قطعت حبل أفكاره، فقالت:

- إلى أين ذهبت نرجس؟

انتزعته من شروده، انتبه لها أخيراً، نظر إليها ثواني معدودةً، ثم أشاح نظره عنها، هامساً.

- لا أعرف.

- لكنّك تبعتها حتى غادرت الحي.

- أكنت تراقبيننا؟

أطرقت رأسها خجلة، وسكتت هنيهة عن الكلام، ثمّ قالت:

- أردتُ الاطمئنان عنها فحسب.

- اطمئني هي بخير، بخير أكثر مني ومنك.

- إذن أين هي؟

- لا أرغب بالإجابة.

ثم استدار إليها وأردف بعد أن رمى سيجارته أرضاً ودعسها بقدمه:

- بعض الأحداث تُفضّل لو ظلّت غامضة.

- هي صديقتي.

- كلنا نعرف أنه لا صديقات لها هنا، ولن يكون لها صديقات.

- لماذا تحدّثني بهذا، نرجس ليست حكراً عليك وحدك، أنا الوحيدة التي تتقبّل زياراتي إليها وتشاركني يومياتها، وكلنا نعلم ذلك.
- ما الحديث الذي يجمعكما وهي أكبر منك بعشر سنوات.
- لا يهم العمر، هناك أشياء مشتركة بيننا كالفنّ مثلاً، نحن نفهم بعضنا جيّداً، ثم من تكون عندها لتحدد لها صديقاتها.

غادرته حزينة، ليست ناقمة عليه، فهي أعرف الناس بنفسها، بغرامها إياه وعشقها صورته، دخلت منزلها دون إلقاء التحية على أحد، معتذرة بآلام رأسها، دخلت غرفتها وآثار الدمع تكوي جفنيها، نظرت إليها شقيقتها رنا وقالت:

- ما يبكيك؟

- لا أحد يعلم إلى أين اتجهت نرجس.

أرادت أن تدير الدفة باتجاه نرجس، لا إلى مالك، فلا أحد يعلم بما في قلبها من وجد الغرام.

- هي شيطانة، اطمئني ستتدبّر أمرها، ليست المرة الأولى التي يحترق بيتها فيها، أنثى غبية، لا أعرف إلى متى ستظلّ متهوّرة، بالله عليك أخبريني كيف تفتعل الحرائق؟ ولماذا؟ ما غايتها؟

- ما أدراك أنها الفاعلة؟ ليست مجنونة لتحرق سكنها ومأوى كان يضمّها.

تركتها رنا وخرجت تدندن بأغنية شعبية، تركت دارين وحدها، تفكر متألمة بذاك العابث فقد أرهقها حباً وحنيناً، كلّما حاولت أن تفتح قلبها له، فتحدّثه عن قسوة الحياة دونه، يضربها بسهم

البرود فيقتل الأمل فيها، اختنقت من الأفكار التي التفّت حول عنقها، فقتلت طمأنينة فؤادها، بكت واسترسلت بالبكاء ولم ينقذها من دموعها أحد، مغرمة به ومغرم هو بنرجس، لا إليها أتى ولا إلى نرجس ذهب، يحدّثها عما في قلبه من حكايات الغرام، مولّهة به وهو مولّه بأخرى، لا يرى دارين على أي خريطة تقع، لا يرى سوى بيت نرجس وثياب نرجس وجمال نرجس وطريق نرجس، ولا يستمع إلا لعزف نرجس وألحان نرجس وصوت نرجس وغناء نرجس، كأنه أعمى عن جميع الوجوه إلاها، وأصمّ عن جميع الأصوات إلا صوتها. ارتأت أن تؤجّل اعترافها بحبه إلى وقت تراه مناسباً، حينها سيعرف أن هناك أخرى قابعة في الظل تقتل الوقت كي تراه، تفتّش عنه في الأزقّة الضيقة والشوارع

المنسية، لكنه أبعد ما يكون عن حبّها وغرامها وعن رؤيتها، لا يراها سوى طفلة صغيرة كأخته هناء.

لم تفقد بعد القدرة على العتاب والركض إليه، إلا أن دربه مجهول ومظلم، لا جدوى من الركض خلاله، ومع ذلك لم تفقد الشغف بعد اتجاه هذا الأمل الكبير، ستمشي في دربه وستنتظره في نهايته، سيصل إليها يوماً ما، وإن تأخّر في الوصول فإنه سيصل ويجدها في نهاية الدرب تنتظره، لن تمل الوقوف ولن تكلّ في الانتظار مهما تورّمت قدماها وأعياها الوقوف، فحبها سيشفع له، سيملّ نرجس ذات يوم، فهي فتاة متعجرفة، يأكل قلبها الغرور، لا ترى أحداً في الحي سواها، لا ترى مالكاً على الكرة الأرضية، سيملّها ذات ليلٍ طويل ويأتي باكياً إلى دارين، حاملاً معه أحلامها، مطالباً بتحقيقها. نامت وعلى وجهها

ابتسامة لطيفة ودمعة يتيمة، ابتسامة لأمل نبت في صدرها، ودمعة لخوف من صدّها مرّة أخرى.

أما مالك فقد دخل دكانه، لا، ليس دكانه، ما هو إلا عامل بسيط فيه، يعمل ليل نهار عند هشام بأجرة متواضعة، يعمل في صيانة سيارات الحي وسيّارات الأحياء المجاورة، ولا يتقاضى سوى الأجر القليل، فتكفيه مذلّة الحياة وحدها.

نظر إلى نافذة نرجس في الأعلى، كانت الستائر قد احترقت كلها، تخيّل نرجس تراقصه في الأعلى على البلاط المحروق وجدران البيت المسخّمة، تتراقص النار حوله ولهيبها يعزف أروع الألحان، غاص في أحلامه وأغمض عينيه، لينسى واقعاً لا يرغب فيه، فرض عليه بقوة الفقر، سمع هشاماً يناديه، أيقظه من أحلامه الهانئة، فأزعجه كعادته في كل مرة يحلم فيها، نظر إلى

هشام _صاحب رزقه_ وعاد إلى عمله، تمتم هشام بالحوقلة، ثم قال له:

- انسها يا بني، وانس أمر صحبتها.

لم يلقَ جواباً من مالك، فآخر ما يتمنى سماعه الآن تعليقات لا يرغب فيها عن غرامه، ظل يعمل على إصلاح مقود السيارة، وهشام يتابعه بنصائحه الضرورية للابتعاد عن نرجس، لأنها ستحرقه بنارها ذات يوم.

- ليست من بيئتنا، ولا من حيّنا، يصعب عليك تقبل عاداتها وتقاليدها، وهي كذلك لن ترضخ لعاداتك وتقاليدك، ألم ترها ذات ليلٍ تراقص الفتيان على المسرح؟ فهذا عارٌ لا يمتّ لحيّنا بصلة، لن ترضى برؤيتها هكذا، استيقظ يا مالك قبل

فوات الأوان، فالبقاء في المنتصف سيرهقك، ولن يمكنك إكمال طريقها إلى نهايته، سترى أشياء لا ترضيك.

نظر إليه مالك، وتنهد ثم قال:

- هذا يعني أنك ذهبت إلى المسرح وشاهدتها.

احتقن وجه هشام وتغيّر لونه، تلعثم ثم ارتبك، وقال:

- الشبّان من ذهبوا، وأخبروني بما رأوا، أنا لا أغادر الدكّان وأنت تعلم ذلك. استمع إليّ الآن يا مالك، الفتيات في الحي كثيرات وجميلات، لطيفات وطيبات المعشر، جميعهن يتمنّين منك إشارة واحدة لتكون المشار إليها زوجة لك تفخر بها، تعيش معك كما تشاء أنت وترغب.

لم يرد عليه مالك ولا يرغب في الرد، فالمناقشات والمجادلات قد كثرت في الآونة الأخيرة، مالك عنيد في غرامه، وجميع من في الحي يعدّ هذا الحبّ باطلاً شرعاً وأخلاقاً، لا هي من ثوبه ولا هو كذلك، هي الفاتنة المتحررة، ليس لها مبادئ ولا ضوابط ولا تخضع لقانون، وهو ابن الحي البار بأهله، الشهم ذو المبادئ والقيم والعادات والتقاليد، لا يحيد عنها أبداً.

في اليوم التالي، انشغل الكل بأعماله، وما عاد أحدهم يسأل عن الحريق وصاحبته، ذهب الجميع إلى أشغالهم، والفاجعة بقيت لصاحبتها، لم يمدّ أحدهم يد العون إليها، أو يقترب من البيت المحترق، خمدت ألسنة اللهب فيه بعد منتصف ليل مجنون، أخلد الجميع إلى النوم وكأن الأمر لا يمت لحيّهم بصلة، ولا يتوسط أزقّتهم الضيقة، لا يحبون صاحبته لأنها غريبة عنهم،

وعن عاداتهم وقيمهم، لو عاشت العمر كله بجانبهم، لن يتقربوا منها.

لم يشعروا بألمها، فالألم لا يشعر به سوى صاحبه، عندهم هذا حريق مفتعل وقد انتهى، وهو عندها ذكريات وأحلام وملابس وحياة كاملة كانت تعيشها، هو عندها مأوى كأن يؤويها من الوحوش المستعرة كالنار الهائجة خارج البيت، هو الأمان المطلق، فوراء الباب ذئاب بشرية لا ترحم.

تناقل الناس العديد من الإشاعات عنها، هروبها إلى عاشق والمبيت عنده، هروبها إلى صديقاتها، أو مبيتها بالشوارع مشرّدة يملأ الاتساخ وجهها وملابسها. الحكايات كثيرة وألسنة الناس لا ترحم، تظلّ تصدح بما لا يهمها ولا سيما أنها في حي صغير، جميع من فيه يعرفون بعضهم، أصبحت حديثاً يقال عند العشاء

وعند الفطور، في الشوارع المزدحمة والأزقة الضيقة، في الأسواق المكتظّة وخلف القناطر.

استيقظت متأخرة، تناولت فطورها في الغرفة، سرّحت شعرها، ظلّت تتأمل ملامح وجهها أمام المرآة، تلمّست بشرتها الناعمة، أعجبت بجمالها، اشتاقت إلى الرقص، أرادت أن تخفف عبث الحياة بها، فبدأت بالرقص، قفزت في الهواء، طارت، سقطت، ثم قامت، قدّمت قدمها إلى الأمام، ثم وضعت أطراف أصابعها على الأرض الملساء، كأنها ترقص على زجاج متناثر، كانت دقيقة في حركاتها، تعرف أين تضع قدمها، رفعت يديها عالياً، وقفزت مرّة أخرى ولم تقع.

فتحت خزانة الثياب، ارتدت ثوباً أصفر يليق بمهارتها في الرقص، وعادت إلى الرقص مجدداً تتمايل على أنغام تحفظها

في ذاكرتها، نسيت ما حلّ بها، وعادت تتمايل على أطراف أصابعها وتدور وهي مغمضة العينين، تتخيّل بياناً يراقصها _مدرّب معها في معهد الرقص_ ابتسمت لهذا الخيال، وأكملت بحماسة أكبر، كأنه فعلاً يراقصها، تعبت، وقعت أرضاً، عادت إلى واقعها، انسكبت دمعتها الوحيدة، تحب هذه الدمعة لأنها تماثلها في اليتم والوحدة، نرجس في أسوأ أحوالها لا تسكب سوى هذه الدمعة.

تأملت الغرفة، تشبه غرفتها، هذا الغريب يعرف كل شيء عنها، وإلا لما أتى بها إلى غرفة كغرفتها، وجلب لها حاجيات تشبه حاجياتها، لم ينقصها شيئاً، حتى مقاسات الثياب جاءت مناسبة لها، لم ينس المرآة ولا البيانو ولا الكمان، وقفت أمام المرآة أسدلت

شعرها الأسود على نهديها، وابتسمت لبياض بشرتها وجمالها الآسر، ابتسمت وقالت:

- من الظلم أن يحصل علي رجل واحد، فأنا محطّ أنظار جميع الرجال، سيُظلم آخرون إن لم يحصلوا علي.

هناك من تنسيها ألمها دوماً، إنها ذاتها المريضة والمهووسة المشبعة بها حدّ الغرور، عشقها لفحم عينيها الأسود وملامحها لا يوصف.

ظلّت تتأمل صورتها المنعكسة في المرآة، الصورة الوحيدة التي تليق بغرامها، شديدة التعلق بها، مفتونة بطلّتها البهية، مأخوذة بجمال لم يسبق أن تذوقته، تعلّقت بذاتها وتضخمت أناها حتى أشبعت نفسها غروراً وتكبّراً.

ارتدت ثيابها وغادرت المكان متجهة إلى معهد الموسيقا، تركت كلّ شيء لذاك الغريب، يتكفل وحده بإعادة ترميم ما أفسده الحريق، حملت حقيبتها الجديدة، تأملت أموالها الجديدة وملابسها الجديدة وبهجتها الجديدة، لكن حياتها لن تكون جديدة، بل مملة ورتيبة ولا شيء فيها سعيد.

غادرت إلى المعهد، كأن لا شيء حصل البارحة، ستنسى وتتناسى لئلا تفسد عليها جمال اللحظات الأخرى، كي لا تقلق وتتوتر ويصبح وجهها كالبرغل لكثرة حبات القلق التي ستتناثر فيه، فتصبّحها في الصباح وتمسّيها في المساء. لذلك فوضت أمرها إلى الغريب، فتهنأ ويشقى.

وفعلاً كما توقّعت نرجس، جاء العمال وباشروا أعمال الترميم، عاد المتسوّل إلى البقعة ذاتها التي يجلس عليها يومياً مقابل

مفرق الأزقة الثلاث، زقاق دارين على الشمال، زقاق مالك على اليمين، يتوسط الزقاقين بيت نرجس، وفي الجانب الأيمن من دكان هشام، جلس وراح يسأل الناس حاجته، يناديهم بقلب منكسر، ذليل:

- أفيضوا عليّ مما رزقكم الله به.

الكل يمشي بجواره، غير عابئ بتوسلاته، وثيابه الرثة، شعره المجعد ولحيته الكثيفة، لقد اعتادوا صراخه ولا جديد عليهم، اقترب مالك منه وجلس القرفصاء قبالته، ظنه الفاعل، لشدّة احتقار نرجس وازدرائها إياه، قال:

- أين كنت البارحة؟

نظر المتسول إليه، ثم صرخ بصوت مبحوح:

- أنا جوعان.

- سأمنحك ما تريد من الطعام، لكن قل لي: أين كنت البارحة؟

- أطعمني إذن.

- سأعود لك بالطعام.

ذهب مسرعاً، ابتاع له فطيرتين وعلبة عصير، وعاد إليه، قدّمهما إليه، أخذ يأكل بشراهة وكأنما مرّ ألف عام دون طعام، وعند الانتهاء سأله:

- الآن أخبرني، أين كنت؟

- أعطني مالاً.

- لا، لن أعطيك المال، أخبرني وإلا ضربتك.

صرخ المتسوّل:

– لا، لا تضربني، كنت هناك.

وأشار إلى دكان هشام.

– وما كنت تفعل هناك؟

– كنت خائفاً، اختبأت خلف كومة العجلات.

نظر إليه نظرة شك، ومنحه قطع نقود وغادره إلى الدكان، ظلّ ينظر إليه بترقّب، وذاك يصيح:

– أيها الناس، أفيضوا عليّ مما رزقكم الله.

ظلّ على هذه الحال، لا سكت ولا الناس منحته شيئاً.

في معهد الرقص أعجبتها نظرات زميلها بيان، كان يوليها عناية فائقة، لا تحظى بها أي مدرّبة في المعهد، يعشق مراقصتها منفرداً بها، تعجبها نظراته العاشقة، فتتمايل مبتسمة كقطّة مثيرة تحاول غوايته وإغراءه بمختلف السبل الممكنة وغير الممكنة، تعشق كونها صيادة بارعة، يعرف كيف يقتنص الفريسة الصعبة التي تحمل تحدياً ومتعة وإثارة في صيدها، ستطهوه على نار هادئة، وما إن ينضج حتى تبدأ بالتهرب منه إلى غيره، البدايات في الصيد سهلة جداً، لا تكلفها سوى ابتسامة صغيرة، فتقع الفريسة في شركها، فتتمايل بإغواء حتى يلهث راكضاً وراءها، تعشق عملية الصيد ذاتها أكثر من الفريسة، تستهويها دائماً المراحل الأولى، كالقطة حين تصطاد الفأرة، تظل تلهو بها وفي النهاية حين تملّ منها تأكلها، وكذلك نرجس ولكن لا تأكل فريستها إذا ملّت منها بل تتركها وتهرع إلى صيدٍ أثمن، صيد أكثر متعة وإثارة، بابتسامة

وكلامٍ لطيف رقيق، ووعود صغيرة، تجعلها تصطاد أكثر الرجال شهوة وإثارة.

عادت إلى الواقع مع بيان وهو يسمعها جميع أنواع الغزل، يده في يدها يتراقصان على مقطوعة ((توكاتا)) الموسيقية لسباستيان باخ، نظراته تلتهم جسدها، وهي منتشية بكلام الغزل، ملّت الرقص، فسحبت يدها من يده وابتعدت عنه، سحبت منديلاً ومسحت عرقها، اقترب منها مطالباً بحقّه في موعدٍ صغير، بمقهى صيفي فارغ من أحاديث الهوى، يتسع لحكاية غرامهما، يرغب أن تجمعه بها طاولة ومقعدان، ووردة حمراء والكثير من أغاني الحب القديمة.

لم توافق على العرض المثير، ولم ترفض، أجّلت الموافقة إلى وقت آخر، تعرف أن المواعيد ستكثر، والعهود ستنطلق، والحب سيفيض، سيطالبها ذات ليلٍ شتوي بارد بعقد قران مستعجل، بسبب الخوف من الوحدة والبرد الشديد، وبعدها سيطالبها بالكثير من الطلبات الذكورية

المرهقة، لن يدعها تكمل العمل في معهد الرقص بحجة غيرته، فستعمل عنده بدوام كامل ودون أجر، لأنها زوجته فحسب، لن تستمع ثانية لكلام الغزل، ستصبح هي الفريسة ولا كما كانت تحلم، ولن يكون من حقها أن تستمع إلى كلام الغزل من الرجال الآخرين، ستكون ملكاً له، يخبّئها عن الجميع لأنها جميلة الجميلات، ويعاملها معاملة شيء تابع له ومن أملاكه.

قطعت الحبل من البداية وربطته حول عنقه، رافضة الإذعان لطلبه، وغادرته منتشية كعادتها، لأنها استطاعت صيده ببراعة، وسيبقى يحوم حولها ليحظى بموعد هادئ على رصيف محطة قديمة، تعجّ بالمسافرين، يخطف قبلة ترضي غرورها، ويرسم لها مستقبلاً جميلاً.

ناجحة في كلّ شيء، في المعهد الموسيقي، في معهد الباليه، دائماً ما تحقق نجاحات استثنائية ترضي غرورها، وتجعلها الرقم الأول والأصعب عند الجميع، ولكن كل ذلك لا يقارن باحتفالاتها بهذه الإنجازات وحيدة،

لا أحد يقاسمها فرحة النجاح، لا أم تدمع عيناها عليها، ولا أب يفتخر بها، ولا إخوة تصفق لها، ولا أصدقاء يلتقطون الصور معها، دائماً ما تحتفل وحيدة برقصٍ يدوم ساعات حتى تتعب وتنام من فرط تعبها.

مرّ أسبوع قبل أن يتصل بها الغريب معلناً انتهاء عملية الترميم، في وسعها الانتقال إلى بيتها متى شاءت ورغبت، سرّت لهذا الخبر كثيراً، فقد اشتاقت إلى بيتها وسريرها وغرفتها، أرسل إليها سيارة مع السائق، وجاءت خادمة الغرف، وضّبت لها حاجياتها في حقائب كبيرة، حمل الموظف الحقائب ووضعها في صندوق السيارة، فتح لها السائق الباب، دخلت كالأميرات مستمتعة بأن تعامل معاملة الملكات.

وصلت السيارة إلى أوّل الحي، ترجّلت منها، حمل السائق الحقائب وسار أمامها إلى البيت كأنه يعرف طريقه.

خرج الجميع من دكاكينهم، يتأملون إطلالتها الساحرة، كأن ما مرّ بها كابوس بشع منذ أيام قليلة، وهي لا تدع مجالاً لأحدهم أن يشمت بها.

أمسك مالك قلبه الذي هوى إلى الأرض وتدحرج عليها، تطلّع إليها المتسوّل قائلاً:

– أطعموني رجاءً، وإلا فستحلّ لعنة في دياركم، لا أحد يعرف مصدرها، أنا جائع، أطعموني رجاءً، وإلا ستحلّ لعنة في دياركم، لا أحد يعرف مصدرها.

وظلّ يردد الكلام ذاته، يشكو ويصرخ ويبكي ويندب سوء حظّه، ولا يقربه ولا يمنحه أحد شيئاً، لم تنظر إليه نرجس، ولا ابتسمت له، تأملت مالكاً بضع ثوانٍ، ثمّ اتجهت إلى المنزل، فتح لها السائق الباب ومنحها المفتاح، حمل الحقائب إلى الدور الأعلى، ثم تركها وغادر.

عاد البيت كما كان قبل الحريق، قفزت على سريرها، رقصت الباليه أمام مرآتها، عزفت على البيانو، نزلت إلى الدور الأسفل، فتحت الثلاجة، شربت القليل من الماء، غنّت بصوتها الجميل، رقصت في الصالة، في فرحها ترقص وفي حزنها كذلك.

ظلّ مالك ينظر إلى بيت أميرته وساحرته الفاتنة، لكنها ليست ساحرة بريئة ولا هو ساحر، ليست سجينة في قصرها كحكايات الأطفال، وإنما اختارت اللقب لنفسها لأنها دائماً ما تطلّ عليه من برجها العاجي، من نافذتها العلوية التي كلّما نظر إليها تؤلمه رقبته لشدّة ما يرفعها عالياً.

اجتمعت النسوة أمام منزل إحداهن، يغتبن نرجس، بدأن بسرد حكايات عنها لا تنتهي ولا تصل إلى أذنها، يتراكض الصبية ويتراشقون بالحجارة، ثم يختبؤون داخل الأزقة الضيّقة، لا تصل الحصى إلى هدفها، بل تصل إلى الأبواب الحديدية المغلقة، فيغضب ساكنوها، وتعاد الكرّة حتى يعتاد الجيران على صخب الصغار وشقاوتهم.

كلهم يجلسون في الشارع، فلا كهرباء في هذه المدينة تضيء غرفهم المظلمة، ولا مراوح تبرّد قلوبهم من حرّ الصيف ولهيبه، يجلسون في الشارع ويحسدون نرجس على كهرباء بيتها، كأنها تستمد الكهرباء من خارج المدينة، أو كأن الحرب السورية استثنتها ولم تمرّ جوارها.

محظوظة بكل ما تملكه ولا يملكونه، لا يرى أحد يتمها ووحدتها، لا أحد يرى الجانب المؤلم من حكايتها، جميعهم يتحدّثون عن حظها السعيد بأنها وريثة أحد الأثرياء، أو ابنة غير شرعية لمسؤول كبير في البلد، وكل الأحاديث تبقى باطلة حتى تحكم هي بحقيقتها، بكلمة منها تنفي ما يقال أو تصمت لما يقال، فبذلك يعرفون أنهم اقتربوا من الحقيقة، والأحاديث جميعها لا تتعدى محيط محدثيها.

على أن بيتها يتوسط الحي، إلا أنها لا تسمع أصوات اليتامى والمتسولين وبائعي البضائع المستعملة والخبز اليابس، لا تفتح نافذتها إلا لنسمة عابرة تداعب خصلات شعرها، أو لعاشق متيّم بهذه الخصلات، وهي رافضة عشقه، غير مستمتعة بغرامه، هي أميرة القصر وهو عامل بسيط في دكان لتصليح السيارات، كما يقال في العامية البسيطة ((كومجي)) لا تعدّه سوى أحمق يعيش دوراً على هامش الحياة، خُلق لأجل خدمة أمثالها المميزين، ولا ينبغي له التكاثر، فهو عارٌ على البشرية، يجب على أمثاله من بشر الدرجة الثانية أن

ينقرضوا، فيفسحوا المجال للبشرية أن تتطوّر بغيرهم، شتّان بين نظراته ونظراتها، في نظراته حبّ كبير، وفي نظراتها استحقار كبير.

أغلقت نرجس النافذة، تكفيها ضجة الأطفال الصغار، وذاك المتسوّل البغيض الذي ما فتئ ينادي ويتسوّل كسرة خبز.

أكملت حفلة الرقص، وآذان من في الحي تطرب لموسيقاها، كلهم يعرفون أنها الآن تقف على رؤوس أصابعها وتراقص السحاب في السماء، جميعهم يتمنون دخول الجنّة المحرّمة عليهم ليستمتعوا برقصٍ يطول ساعات وربّما يمتد، تغير النسوة منها، فما عند نرجس لا تمتلكه أي أنثى منهن، هي الوحيدة التي اخترقت عادات أهل الحي، وارتدت القصير والضيّق، بينما لا يزلن يأتمرن بأمر رجالهن، ولا يمددن نظرهن إلى أحد من رجال الحي، فيما نرجس تفعل ذلك ولا يجرؤ أحد على محاسبتها، الدكاكين تفتح لها لتبتاع ما يحلو لها في أي ساعة رغبت وشاءت، طلباتها مجابة دوماً ولا أحد يعترض، ولكن خلف ظهرها تسري

أحاديث الغيبة والنميمة، ويطالب الناس بوضع حدٍّ لها بطردها، لأنها أفسدت عقول الشباب والفتيات.

ظل مالك ينظر إلى الأعلى متناسياً حديث جدّته ذات ليلة صيفية حار إذ قالت له "لا تنظر إلى نافذة في الأعلى قد فُتحت، النوافذ المفتوحة في الأعلى لم تفتح لنا، وليس من حقنا النظر إليها" حينها صاح بها "قد فُتنتُ ببريقها، وانتهى الأمر بي عاشقاً، يحوم حول قصرها ليل نهار" قالت له وهي تربت على كتفه "لا يخدعنك البريق، ما هو إلا بريق خداع" كانت جدته تعرف نصف الحكاية فحسب، لا تعرف رهافة قلبه وألم روحه، اليوم تحديداً شعر بأن عشقه بئر لا قرار له.

عاد هشام يوبخه على تقاعسه، فبفضله تراكم العمل، ظل واقفاً يستمع إلى التوبيخ، ينظر بطرف عينه إلى الأعلى، علّها تطلّ عليه من عليائها، والمتسول يصيح في الناس ويطلب أن يمنحوه شيئاً يسيراً مما

منحهم الله، تباً لغبائه!! لا ريب أنه مختلّ عقلياً، فهذا الحي هو الأشدّ فقراً بين الأحياء قاطبة.

جاءت دارين إلى نرجس لتطمئنّ عليها، رآها مالك، ركض إليها وأعطاها رسالة لطيفة، طلب منها ألا تفتحها وتمنحها محبوبته، وافقت تلك على مضض، ودخلت الباب بعد أن فتحت لها نرجس، بينما عاد إلى الدكان سعيداً مسروراً بإنجازه الصغير، يظن الآن أنه تقدّم خطوة إلى الأمام.

جلست على الأريكة مقابل نرجس، وهي تطالعها بنظراتها فأربكت دارين، كان لديها الكثير من الكلام لتحكيه، ولكن مالكاً أثقل عليها بالأمر وأربكها برسالته الصغيرة، بدأت نرجس تحدّثها عن حياتها الجديدة في هذا البيت، عن الموسيقا والباليه، عن المعجبين والمحبين، تحب أن تكون محور الحديث دوماً، أميرة المكان. فرغت من ثرثرتها، فمنحتها دارين الرسالة:

- خذي هذه، إنها من مالك.

كانت مشوّشة الذهن، خائفة من حبّ يولد الآن، فتحت نرجس الرسالة وقرأتها بصوتٍ عالٍ، كانت مليئة بالأخطاء الإملائية، مليئة باعتراف الحب الأوّل. قهقهت عالياً، ثمّ قالت:

- غبي هذا المالك، ألا يعرف مكانته ومكانتي؟ ألم يتأمل ثيابه الرثّة قبل أن يعترف بغرامه التافه؟ ثيابه سوداء، بالية، مليئة بشحوم السيارات وزيوتها، لمَ لم يختر عملاً أرقى من عمله هذا؟ لأنه فاشل، غبي، لن يرقى يوماً إلى الحب.

قامت من مكانها، أحضرت قلماً أحمر من درج المكتب، وكتبت على الورقة من الجهة الأخرى، أعطتها لدارين، قائلة بسخرية:

- من أخبره أن هناك قدراً سيجمعنا يوماً، فهو غبي مثله لا محالة.

فتحت دارين الورقة وقلّبتها بين يديها، ثم نهضت قائلة:

- لكن مالكاً حبّه طاهر.

– أنت صغيرة على الحبّ يا دارين، انتبهي إلى دروسك قبل أن تقحمي نفسك بقصص الكبار، الطريق طويل أمامك، لا تفكّري بهذه الترّهات.

ما إن خرجت من الباب وأغلقت ذلك الباب خلفها حتى ركض إليها، منحته الورقة قبل أن يسألها عنها، قرأها بتلعثم وارتباك، هو ضعيف في القراءة ولا يجيدها جيّداً، "أنا نارٌ يا مالك، ولستُ جنّة تسعد بها"

طوى الورقة في جيب بنطاله، لن ينسى وقفة الذلّ هذه على باب أميرة القصر، لم تكن مسحورة بل ساحرة، سحرته بنظراتها وجمالها وأوقعته في شباكها، لم ينظر إلى الأعلى كعادته، بل إلى الأسفل ومشى الهوينا، كأنه يمشي على رمشيه.

تأملتهما من فرجة الباب، شيّعتهما بنظراتها غير نادمة على ما فعلته، فلينظر إلى وجهه جيداً قبل أن يطرق قلبها، هو وسيم، لا شكّ في ذلك، لكنّه مهملٌ في ملابسه، فقير، غير مثقف، لا ينتمي إلى طبقتها، هي

تستحقر أهل الحيّ جميعهم، تمشي بمحاذاتهم، مختالة في مشيتها، يأكلها الغرور، ويأكلهم الحسد، واثقة من نفسها ثقة أهل الأرض جميعهم. ركضت دارين خلفه قائل:

- أيا مالك تعال، فالحب في حارتنا كبير، وليس مقتصراً على تلك الدار.
- ولكن لا أرجو سواها حبّاً يا دارين.
- هي نارٌ، وأنت جنّة.
- وأنا أرغب باللعب في النيران.
- ستحرقك وتؤلمك ولن تجد علاجاً يداويك.
- اتركيني وحدي.
- حسنٌ، لكن ستلجأ إلي يوماً طالباً نسيانها.

غادرته بألم، تحطّم قلبها بشدّة من الكلمات التي سمعتها فنخرت صدرها، أدركت حقيقة أن لا أثر لها في حياة مالك، وهو الأثر كلّه في

حياتها وقلبها. وصلت إلى بيتها مكسورة من الحب الذي آمنت به طويلاً، وتخشى أن تكفر به، راهنت على إنقاذه، مع الأسف، لم يكن لها مقام في ربيع الحب، جاءها الخريف باكراً فاصفرّت أيامها، وبقيت أيام نرجس ربيعاً مخضرّاً. سألتها رنا عن حالة الحزن التي تنتابها بين الفينة والأخرى، فأجابت:

- هل لمرض التفكير علاج؟
- ربّما، إن حاولتِ إشغال نفسك بشيء آخر، أخبريني ما الأمر؟
- أحياناً نفقد القدرة على النطق بأشياء تؤلمنا.
- لا شيء يبقى في مكانه، فالليل يعقبه النهار.
- أشعر بالكلمات عالقة في حنجرتي، ولا سبيل لإخراجها.
- حرريها بالصراخ.
- حاولت، فخانني صوتي، ولم يخرج سوى تنهدات مكلومة.

عانقتها رنا، وقالت:

- أنت صغيرة على هذا الكلام، كيف حال قلبك؟
- به خدوش لا تُرى.
- ومن آذاه؟ فهو لطيف لا يؤذي أحداً.

بكت في حضن أختها كثيراً، ظلّت رنا تربت على كتفها بهدوء حتى هدأت واستكانت، ابتسمت لأحاديث رنا اللطيفة، لم تجبرها على الكلام، وتلك لم تخبرها بقلبها الذي تحطّم على حدود الألم.

فتحت نرجس حاسوبها، وبدأت تكتب عن رجل الكلمة _عن مالك_ لكن بشخصية مختلفة، ترغب فيها وتهيم به، بثياب نظيفة ووجه نظيف، عمل محترم وعقل منفتح، كان فضاء الصفحة البيضاء غير محدود، في إمكانها الكتابة ليل نهار، عن شاب أغرم بها وأوقعته في حبالها، فريسة جديدة لكنها خيالية، أغرم بها بجنون عاشق وراقصها تحت ضوء القمر الفضي، كتبت الكثير وتعبت جرّاء التفكير بعاشق لا وجود له. وتجهت إلى النافذة، فتحتها، الحي غارق في الظلام، لا إنارة في الأزقة، نافذتها تمنح النور للحي الفقير، صراخ المتسول قد خمد، والصبية في منازلهم، ومالك أغلق الدكان وذهب إلى بيته. تأملت الحي الهادئ، تخيّلت مالكاً في الأسفل يقف، يراقبها ويتأملها، هل باتت تفكر به؟ أم كعادتها، أحبّت حبه إياها؟ حبّه يختلف عن حبّ بيان، ليس هذا ما تبحث عنه، إنما عن حبّ عاصف قاسٍ، يرفعها إلى أعالي السماء، فيراقصها فوق السحاب، ويعزفان معاً أجمل الألحان.

عزفت قليلاً على البيانو، انسكبت دمعتها تشكو وحدتها، اليوم كانت شديدة الفظاظة مع دارين، هي الوحيدة التي تزورها وتستمع إلى ثرثرتها، يجب أن تستميلها لترفّه عنها من وحدة هي فيها.

خرج مالك إلى عمله مع أخته هناء، وعند بيت نرجس التقيا بدارين، سقط قلبها من مكمنه، مازالت في السادسة عشرة من العمر إلا أن الحب لا يعرف عمراً، منذ أن نضجت وكبرت تحاول لفت انتباهه بمختلف الطرق، لكنها في الأسفل لا يراها، لأنه دائم النظر إلى الأعلى، إلى نافذة توهّمها فُتحت له. ركضت هناء إلى دارين، استقبلتها الأخيرة بحفاوة، بينما مالك لم يؤجل عادته اليومية في الاختلاس والنظر إلى الأعلى، النافذة مازالت مغلقة، أميرته ماتزال نائمة. لم تستطع دارين الصمت فقالت له:

- تجاوز الأمر.
- لازلتُ أحمل الندوب.
- ستمحوها الأيام.

جلس على حجر إسمنتي بجانب الدكان، وقال:

- لن أهرب، سأظلّ ألجأ إليها كبيتي الآمن.

- ليست كل البيوت آمنة، وبالتالي هي تهرب منك.
- الأمان الآن....

أكملت في سرّها "أن تكون معي" فأكمل في العلن:

- أن أكون معها، ثم أرجوك يا دارين، اهتمي بدروسك ولا تتدخلي في شؤون الكبار.

دمعت عينيها لفظاظته، غادرت بصحبة هناء، فقالت لها:

- دعيه وشأنه، نحن عائلته ولا نتدخل في أموره الخاصة، والدتي فقط هي من ترفض غرامه هذا.

نظرت إلى هناء وقالت:

- لماذا كلهم يجيبونني بأنني صغيرة على الحب، عمري ستة عشر سنة، لا صغيرة، أعرف الحب أكثر منهم، هذا الذي ينبض قلب يتألم وليس صخرة لا تشعر.

شهقت هناء مما سمعته الآن، وعرفت بأن دارين عاشقة ولن تحيد عن درب الغرام أبداً.

نزلت أخيراً نرجس من برجها العاجي، فتحت بابها تتأمل رعايا الحي المسحورين بها، هرع إليها مالك ووقف قبالتها، يريد أن يستفسر عن كونها ناراً تحرقه، لكنها ردّته بعنف، ودفعته بجفاء، أزاحته عن طريقها ومشت ببرود. وقف بجانب الحائط يلملم كرامته الذبيحة، ويحمل خجله الذكوري المستباح، ها هو مرة ثانية يتجرّع كأس الخذلان، حلّق في عالم

الوهم وصنع لنفسه حلماً يليق به، ما إن أبعدته عن طريقها حتى ارتطم بخشونة الواقع. اقترب منه هشام وربت على كتفه، ثم قال:

- ستهلك إن ظللتَ هكذا.
- ربما في هلاكي ينمو حبّ أسطوري.
- هي لا تحب سوى ذاتها، دعك منها، وتعال أزوجك أجمل جميلات الحي.
- أخبرتك قبلاً بأنني في غرامها عاشق، فلن أهوى سواها.
- إذن اشغل نفسك بأمرٍ تحبّه، بدلاً من أن تشغلها بمراقبتها، حينها ستترك الأمور تأتيك وحدها.
- وإن لم تأتِ؟
- إذن لن تكون من نصيبك، لا تعاند القدر.

تركه وعاد إلى عمله، يحاول التفكير في كلّ شيء إلاها، لكنها كانت تشغل الجزء الأكبر من تفكيره، متى سيبقى في قائمة الانتظار؟ فوقفات

الذل تتزايد، وإلى الآن لم يقل لها وداعاً، أو يغادرها دون وداع. أو ربما يبقى في خانة الانتظار، لا هي ستحن ولا هو سيمل، ولا ندري من المنتصر بالنهاية، نرجسية نرجس أم هيام مالك.

وفي باحة المدرسة كانت دارين شاردة في حبيب لا يعيرها أدنى اهتمام، جلست جوارها هناء وقالت:

- أراك متعبة اليوم.
- أشعر برغبة ملحة في البكاء.
- أنت تهربين.
- ربما، أشعر برغبة في النوم ساعات لا تحصى.
- بوحي بما يؤلمك.
- لا رغبة عندي بالكلام، بي تعبٌ لا أعرف مصدره.
- أذرفي الدمع وارتاحي.
- لن تريحني من وصب أنا فيه.

- دارين، سأقولها لك: لا تشتاقي لمن لا يرونك، لا تتغاضي عن أخطائهم كي لا يتعمقوا في قلبك، حينها لا يمكنك الخلاص منهم، لن تجدي سوى الوجع والألم.
- أنتِ لا تعرفين شيئاً يا هناء.
- واليوم عرفتُ ما كنتُ عنه غافلة، مالك ليس لك، وإن أزعجك صراخي وآلمتك، يجب أن توقظي نفسك قبل فوات الأوان، الطريقة الوحيدة التي تسعديه بها أن تتركيه وشأنه، ابقي بعيداً عنه.
- ونرجس؟
- هو بحبّها مغرم، افهمي ذلك واختفي من حياته ليعرف قيمتك، سيفكّر حينها على أنك خيارٌ ثانٍ. لكن لا تمشي في طريقه كي لا تلتقي به.

أومأت برأسها وأمسكت بقلبها تهدّئه كي لا ينفجر من الألم، ظلّت تواسيها بكل الكلمات اللطيفة التي تمتلكها.

في معهد الموسيقا، كانت نرجس تعلّم الطالبات العزف، فعزفت أمامهن معزوفة ((ضوء القمر)) لبيتهوفن، حلّقت مع طالباتها في سماء الخيال، صفقت لها الطالبات، وأخذت كل واحدة تعزف قليلاً تحت تشجيع نرجس.

وعند الانتهاء اقتربت منها لينا، بقدر ما تحب نرجس، فهي تكرهها، لينا الطالبة المجتهدة والمميزة لدى الكلّ إلا نرجس.

- لحنك جميل.
- أعرف ذلك.
- أتمنى أن نكون صديقتين، لا تقابليني بهذا الجفاء ثانية.
- حلمك كحلم إبليس بدخول الجنة.
- ولكنني أحبك يا نرجس.

- أنا معلّمتك يا لينا، ثم أنا لا أحبّك. لن نصبح مقرّبتين مهما امتد العمر.

- وما ذنبي أنا؟

- ذنبك أنك أتيتِ إلى الدنيا في الوقت الخاطئ، كان يجب أن تموتي يا لينا، ما كان عليك أن تعيشي، ذنبك أنك ابنتها.

غادرت الدرس وصعدت إلى قاعة الباليه، رمت حقيبتها أرضاً، وجلست على الأرض، وضعت رأسها في يديها، في كل مرّة تلتقي بلينا تحزن وتتألم كأن صورة الغدر لا تفارقها، تلاحقها في التوقيت نفسه، ولكن يختلف المكان. صاح صوت قريبٌ منها:

- في كل مرّة تنغلقين على ذاتك، ستجدين من يخرجك من الحزن ويعيد لك البسمة من جديد.

ابتسمت لابتسامة بيان، اقترب منها وركع بجوارها قائلاً:

- كان عزفك رائعاً، ما رأيكِ لو رقصنا على معزوفة (ضوء القمر).

- ومن سيعزفها لنا؟

- لا عليك، هي على الحاسوب.

نهض وضغط زرّ التشغيل، انطلقت جمالية بيتهوفن، أمسكها من يدها وسحبها إلى صدره، إلى عالمه، إلى قلبه، وتلاقى القلبان في رقصة بديعية، وجو خالٍ إلا من أنفاسهما، رقصا كثيراً. حتى سمعا تصفيقاً حاراً، انتبها إلى القادمة، كانت نازك زميلتهما في التدريب، ابتسم بيان وامتعضت نرجس، رحّب بها بيان:

- أهلاً بنازك.

لم ترد، وإنما ردّت نرجس قائلة:

- سأغادر.

حملت حقيبتها وغادرت المكان قبل أن يستوقفها بيان، اقتربت نازك من بيان قائلة:

- يبدو أن الأوغاد يربحون دائماً.

- لمَ تقولين هذا الكلام؟

- إلى متى سأبقى متيبّسة من الانتظار؟

- الزمن سيمنحك نسياناً رحيماً.

ضحكت وقالت:

- وأنت إذن إلى متى ستظلّ تراقصها بوعود من جليد؟

- سيأتي اليوم الذي سنقترب فيه إلى الحد الذي ستبتعدين أنت فيه.

ابتسمت ابتسامة سخرية، وقالت:

- يبدو أنك لم تسمع جملتي الأولى _الأوغاد يربحون دائماً_ سأنصحك نصيحة صغيرة، نرجس تلاعبك على أصابعها، لن ترضى أن تربطها بعقد شرعي، خُلقت لتبقى طائراً حراً، لن ترضى بقفصك.

- ما تعرفين عن نرجس؟

- أعرف الكثير، فهي غير قادرة على الحب الحقيقي، لا تعرف ماهية الحب، ستؤذيك وترهقك، مغرمة بذاتها فحسب، ما تحبه فيك ليس أنت، بل انعكاس صورتها في عينيك.
- لم أفهم، أوضحي.
- تحبّ حبّك إياها، لكنها لا تحبّك، تعشق صورتك اللامعة في صفحة عينيك، لكنها لا تستطيع أن تغرم بك، فمثلها لا يعرف الحب.

غادرت المكان قبل أن تكمل وهو يناديها، يريد أن يعرف المزيد عن نرجس، يرغب في فهمها أكثر، أإلى هذه الدرجة هي خطيرة؟ أم إن نازك تبالغ؟

وصلت نرجس إلى الحي، ناشدها المتسول قائلاً:

- من مال الله أعطني، جودي علي بالقليل ولا تحرميني.

نظرت إليه بازدراء وأكملت الطريق، دخلت البيت دون أن تلمح مالكاً وقد أكلها بعينيه، لم تمنحه نظرة واحدة تشفي قلبه الكسير.

جاءتها دارين بعد عصر اليوم، جلست وإياها في الصالة، تلك تثرثر وهذه تستمع، ووصل الأمر إلى حدّ الاستهزاء بمالك، فانتفضت دارين قائلة:

- ستخسرين يا نرجس حبّاً حقيقياً، لا وهماً.

- دارين، أعرف إلى ما تلمّحين.

- إلامَ ألمح؟

- بعينيك غرام، وفي قلبك آلام وجد.

- ومن أخبرك بذلك؟

- دموعك المتجمعة التي أوشكت أن تنسكب.

فانسكب الدمع يكذّب صاحبة العينين الباكيتين.

- أتريدين مني أن أحدّثه عن غرامك.

صاحت دارين:

- لا، أرجوك لا تفعليها.
- إذن لمَ تأتين إلى بيتي وتطلبين مني أن أبادله الغرام.
- أحب أن أراه سعيداً.

صفقت نرجس وضحكت ضحكة رنانة، وقالت:

- هذا غباء منك يا دارين، إن أردته فعليك الدفاع عن حبّك، إن خسرته فلا تبكِ خسارته، هو الآن لا يشعر بما تقدمينه له.

أمسكتها من كتفها، وأكملت:

- إن كنت عاشقة فلا تدعي الحبّ يتسرّب منك، حافظي عليه.
- أتعيشين قصة حب الآن؟

- لا تدخلي إلى عالمي، ولا تحسبي نفسك أختي، لكل إنسان غرفة محكمة الإغلاق، فيها أشياء ثمينة لا يحب أن يراها أحد، ولا يسمع بها إنسان، فاحترمي هذه الغرفة ولا تدخليها.

اعتذرت منها دارين وغادرت، اتجهت إلى مالك ووقفت مقابل الدكان، تقدّم إليها، خشي أن تكون أميرته قد أصابها مكروه ما، سأل بهدوء"

- أنرجس على ما يرام؟
- هي في أفضل حالاتها.
- الحمد لله، ظننتُ أنه أصابها مكروه ما، لأن تعابير وجهك محتقنة قليلاً.
- لم يصبها شيء يا مالك.
- ماذا تريدين إذن؟
- أتيتُ لإلقاء التحية فحسب.

- لا يصحّ يا دارين، الناس سيقولون أشياء معيبة في حقّك، فأنت ابنة الحي والكل يعرفونك، لا أرغب أن يمسّك أحدهم بسوء.
- ونرجس؟ ألأنها غريبة يصحّ الوقوف معها، ومراقبتها ليل نهار؟
- لا تخلطي بينكما، نرجس ستكون زوجتي وأماً لأطفالي، حينها سأسكت جميع الألسن التي تأتي على ذكرها، أما أنتِ غفداً تكبرين وتصبحين امرأة ناضجة.

نظرت إليه بألم وحسرة على حالها، غادرت مسرعة قبل أن تفضحها دموعها التي انهمرت على وجهها، وعاد يتأمل النافذة بأمل وألم.

جاءه الشيخ تيم الله واقترب منه، انتبه مالك ونظر إليه، فرحب به:

- أهلاً وسهلاً يا شيخنا.
- سمعتُ حديثكما دون قصدٍ مني، أحسنت جواباً، لكن هل يصحّ أن تنظر إلى نافذة داخلها فتاة غريبة عنك؟
- لا أرى ما بالداخل يا شيخي.

- أتنتظر حتى تقع في المحظور؟ لمَ لا تتجنّب الفتنة قبل حدوثها؟ افرض مثلاً أن الستارة أزاحتها الرياح وهي لا ترتدي ما يسترها، ماذا ستقول حينها لخالقك، غض بصرك الآن يا مالك. واحفظ الفتاة كأنها أختك.

تأفف مالك عند مغادرة الشيخ تيم الله، بدّل ملابسه، أغلق الدكان وغادر إلى المنزل. رمى نفسه في حضن والدته، وقال:

- متعبٌ يا أمي، دموع عيني تحارب أمطار السماء، كلهم يطالبونني بالابتعاد، وقلبي لا يحتمل كل هذا الخراب.
- وأنا أطالبك مثلهم، أنت تؤذي نفسك، وأنت من جلبتَ الخراب إلى قلبك.
- كوني معي يا أمي، مع قلبي، ولا تكوني ضدي.

- أفهم أنك عاشق حتى الثمالة، لكنها ليست من بيئتنا، لا تراك ولا تشعر بوجودك، فلماذا تذلّ نفسك لها؟ لمَ تقدّم قلبك قرباناً لروحها؟

- ربما يحنّ قلبها ذات نهار.

- أنا لا أرغب بها في داري.

ابتعد عنها دهشاً من نبرة صوتها التي ارتفعت فجأة، وصاح:

- لكن يا أمي، ظننتكِ معي منذ البداية.

- كنتُ أغضّ الطرف عنك ريثما تعقل، ولكن ما دام فيك مسّ من جنون الهوى، فلن أسكت ولن أقبل بها كنّة في بيتي، طال الزمان أم قصر.

- أيهون عليك قلبي؟ أتجرع الويلات يومياً من أجلها.

- ستنساها حين تتزوج خيراً منها أدباً وأخلاقاً.

- لكن، لا أرتضي سواها زوجة.

نهض من مكانه وقبل أن يخرج صاحت:

- جدتك كانت على حق حين قالت: "النوافذ في الأعلى لم تفتح ولن تفتح لنا، فانظر أمامك، ربما تتعثر بواحدة تذوب فيك حبّاً وغراماً"

حاول أن يردّ عليها، لكنه فضل الصمت على البوح بمكنونات صدره، ذهب إلى غرفته واعتكف فيها، أغلقها جيداً قبل أن يتسرّب غرامه إلى الأبواب المغلقة فينتفض ساكنوها عليه.

جلست لينا مقابل والدتها سهام تقصّ عليها ما حصل بينها وبين نرجس.

- قاطعتها شهراً، لأجعلها تشتاق إلي، لكنني فوجئت بأنها لم تشعر بغيابي، بل زادها غيابي كرهاً ونفوراً.
- دعيها وشأنها، لا تبادري بالاعتذار، وأنتِ لستِ مذنبة، ولستِ ضلعاً في الموضوع.
- لمَ لا ندعها تعيش بيننا.

صاحت سهام:

- لا، أخبرتك قبلاً أن هذا الأمر مستحيل.
- ولكنك تنفقين عليها أكثر مما لو كانت تعيش بيننا.
- سأنفق عليها إلى أن أموت، وسأقسم ما أملك بينكما، ولكن من المحال أن تعيش بيننا.
- لا أفهمك يا أمي، أفهم فقط أنني أحبّ نرجس.

- ونرجس لا تحبك ولا تحبني، لن ترضى أن تعيش معنا، هي تعشق الوحدة ومغرمة بها.

اقتربت منها، وأحاطت وجهها بيديها الاثنتين، وقالت:

- لينا حبيبتي، افهميني، نرجس إن جاءت ستطفئ شمس الحب بيننا، ستستولي على بريق حياتنا وتسرق راحة بالنا وترحل، ستتركنا مصابتين بالخسارات والخيبات، وسنفقد القدرة على التواصل مع بعضنا، ستقتل عمق الصلة بيننا. دعيها بعيدة عنا، أنا أعرف الناس بها، عايشتها ثماني سنوات، لذلك أعرف عنها ما لا تعرفين.
- ربّما لكِ أسباب منطقية لا أعرفها.
- دعي الأمر بينكما، طالبة ومعلّمة، لا تقتربي منها أكثر فتلسعك.

اقترب بيان من نرجس، وقال لها:

– اليوم لا رقص، تعالي نلعب لعبة قصيرة، أسألك فتجيبين بكلّ صراحة ووضوح.

أومأت برأسها.

– ما يعني بيان بالنسبة لك؟

– صديقي.

– فقط؟

أومأت برأسها.

– ووعودك؟

– أي وعود؟

– الحب والغرام.

– أنا لم أعد بشيء.

- رقصنا معاً أياماً، طارحتك الغرام وبادلتني الهيام، ظننتُ أن نهاية هذا الغرام زواج ثم أطفال.

- ....

- أرغب في الزواج بكِ يا نرجس.

- ليس الآن يا بيان.

- إلى متى؟

- إلى أن أعرف إن كنت قادرة على اتخاذ خطوة كهذه.

- طال الانتظار كثيراً.

- وما يضيرك لو انتظرت أكثر، بإمكان العاشق الانتظار.

غمزته بطرف عينها وغادرت. حاول اللحاق بها، لكن استوقفته نازك في الظلمة تستند إلى الجدار، ففزع لمرآها، وقال بغضب:

- أنتِ دائماً تتخفّين في العتمة.

- خيرٌ من أن أفعلها في النور مثلكما.

- وما فعلنا؟

- لا شيء يذكر، هنيئاً لك وقفة الذلّ هذه.

تأمّلها قليلاً، وكانت تعرف كيف تصطاد في المياه العكرة، كأنها ضربت رجولته، فأراد أن يوضّح لها أنه رجل لا ينتظر، فاقترب منها وقال:

- حسنٌ، لن أنتظرها، ما رأيكِ في موعدٍ صغير.

انفرجت أساريرها عن ابتسامة صغيرة، وكأنه بدأ يشعر ويحس. أومأت برأسها، واتفقت معه على موعدٍ في مقهى بعيد، في ذات المكان الذي اعترف لنرجس فيه ذات مرّة بحبه وغرامه، سيعترف لأخرى بما يسميه إعجاباً ولا حبّاً، لأنه لم يغرم بعد بنازك، ربما هذا الإعجاب يوصله فيما بعد إلى مراحل الحب المختلفة، فتاة تلاحقه أفضل بكثير من فتاة يلاحقها.

صاحت هناء بدارين:

- توقّفي عن تسوّل عاطفته.
- تخيلي يا هناء رفض أن أقف جواره لحظة واحدة، وهو يجري خلفها كلما لمح طيفها.
- لأنه مولّه بها، أقولها المرّة الألف، توقفي عن ليّ عينيه ناحيتك، لا تقبلي بعلاقة أحادية، لا تخنقي نفسك بالارتباط بحبل يقيّدك.
- حين يملّها سيأتي إلي عاشقاً.
- كفي عن التسويغ والبحث عن أجوبة ترضي هذيانك، اكتمي صرخات روحك ولا تدعي لها متنفّساً، لا تحاولي أن تحشريه عنوة في حياتك وترغميه على تقبّل حبك.

جلست بجوارها، وأمسكت كفّها، وأكملت:

- لا تقنعي نفسك بفتات الحب البارد، سيهلك الانتظار روحك، كفّي عن خداع نفسك بالتنقيب عن مستقبل يجمعكما، لكل واحد منكما

حكاية مختلفة، فلا تقفي في درب خاطئ، سيجمعك الله يوماً بحبيب ينتظرك في درب أجمل من درب مالك، أنت صغيرة على ذبح قلبك بسكّين الحب.

- وأتركه لها؟

صاحت هناء:

- لن يكون لها، هي تزدريه، إن كان يعدّك أخته الصغيرة، فهي لا تراه أصلاً، لا يستطيع أن يتزوجها، لا يستطيع أن يجلب لها الكهرباء في كل ساعة. لن يرضى أن ترقص أمام غيره، لن يستمع إلى عزفها، نرجس ومالك لا ينتميان إلى الكوكب ذاته، ولن تجمعهما حكاية مشتركة.

- إذن سيعود لي.

- لم يكن لك من البداية فيعود إليك، اتركيه لقدره.

فتحت نرجس نافذتها، هالها منظر ما رأت، العديد من البالونات تطاير في الهواء أمامها، وعلى كلّ بالون عبارة حبّ لطيفة، قطبت حاجبيها، نظرت إلى الأسفل، رأته سعيداً بما يقدّمه لها، عادت تنظر إلى البالونات، ثم سحبت ورقة من دفترها، وصححت له أخطاءه الإملائية، رمت الورقة من النافذة وأغلقتها بإحكام.

سقطت الورقة أمام قدم مالك، حملها وقرأها، تسرّبت مشاعره إلى وجهة خاطئة، طارت البالونات بعيداً، وطارت معها فرحة مالك، غابت ابتسامته من رسالتها وقد ظنّ أنها أرسلت إليه تبادله الهيام. أعتقد أن قلبها قد أشفق على قلبه أخيراً، ولكن ما رآه من قسوة في قلبها، أدرك أنه كحجر الصوّان لا يلين. خذلته مجدداً ولا يتوب عن ذنبه بحقّ نفسه، يسارع إليها كأنها حلم لذيذ، ولا يعرف أن الأذى سيطاله وإن كانت خليلته. دخل الدكان حزيناً وانكبّ على نفسه. جلس جوار هشام، فقال له ذاك الأخير:

- إلى متى ستبقى تعاني بسببها؟ تجاوزها وإن كان ذاك شاقاً على نفسك، لا توقف حياتك على عتبة دارها إن كانت لا تكترث بك.
- كلّما حاولت الابتعاد والمضي في طريق آخر، أراني تعثّرتُ بها. لا أستطيع أن أحمل ذاتي وأهرب منها، أو أمنع نفسي ألا تراها رغم أنها لا تبالي بجرحي إلا أنني لا أرغب بخسارتها، ربّما ستهيم بي ذات يوم.

رأى هشام الشيخ يمنح المتسول قطعة نقدية، وذاك يشكره على كرمه ويدعو له، ناداه هشام، فأقبل إليهما، وطلب هذا الأخير أن يحدّث شيخه الفاضل مالكاً بما نازعته إليه نفسه. فقال الشيخ:

- اتق الله في نفسك وعائلتك، صوّب أذى الدنيا وحزن لياليها لعمل يقرّبك إلى الله ورسوله، ابتعد عن كلّ منكر يا فتى، وتقرّب بدعائك إليه، لا تدري لعلّ الله يكتبها لك بعد دعاء طويل تردده في جوف الليل.

صاح هشام:

- أكرمك الله يا شيخي، كلامك لا غبار عليه، ونحن نرجو الله أن يبعده عنها، هيا يا مالك وانهض إلى والدتك، أرح نفسك، فاليوم قد بلغت غايتك من التعب.

نهض مالك متثاقلاً، بدّل ملابسه وغادر إلى بيته، وهناك وجد دارين تجالس أخته ووالدته، يتبادلن الطرف مسرورات ضاحكات. ألقى التحيّة وجلس قرابة والدته.

نظرت إليه دارين خلسة واتجهت بأنظارها إلى الأرض في استحياء، كأنه آتٍ إلى خطبتها، أما والدته فقد أثنت عليه كثيراً ودعت له بصلاح الحال، وطلبت منه أن يوصل دارين إلى بيتها، شقّ عليه هذا الأمر، كي لا تحادثه بأمور غرامه، وكي لا يمر جوار بيت نرجس فيزداد الأمر سوءاً، لكن والدته أصرّت عليه، فطلب أن ترافقهما هناء، رفضت الأخيرة متذرعة بصداع يفتك بها ويلتفّ حول رأسها، كانت غايتها أن

تتركهما. وخرجا معاً، دارين مسرورة جداً لمرافقته إياها، وهو حزين لفعلة نرجس الأخيرة، قطعت الصمت بقولها:

- هل خذلتك مجدداً؟

قطعت شروده، تأملها قليلاً، ثم أكمل الطريق صامتاً، كأنما أعطاها إشارة كي تكمل كلامها:

- إن كانت قد خذلتك مراراً، فلا تلتفت إليها والتفت إلى من كانت بك مغرمة، تجاوز من تحب وجاور من تحبك.
- حينها أكون قد عالجتُ الخطأ بخطيئة كبرى.
- لماذا؟
- لأنني سأسيئ إليها كما تفعل نرجس بي، سأهرب من وهمٍ لأذيق غيري وهماً أكبر.
- ستنسيك الأيام ما مررت به، حين تلقى من الأخرى حناناً كبيراً.

وصلا إلى بيتها، أنهى الحديث بقوله:

- اقفلي الحديث ولا تفتحيه ثانية، فأقصى أماني أن أشارك فتاة صغيرة السن ألمي العاطفي، انتبهي إلى دروسك، ولا تغرقي في مشاكل الكبار.

يا الله ما أشدّ سلاطة لسانه! كم مرّة أعاد عليها ذات الكلام الذي يذبح قلبها ببرود، طفرت دمعة من عينيها، دخلت بيتها مسرعة كي لا تذرف دموعاً غزيرة أمامه، وعلى سريرها بكت كثيراً من شدّة القسوة التي لاقيتها من أحبّ الناس إلى فؤادها.

دخلت رنا الغرفة، فكتمت دموعها بابتسامة صغيرة، لكن حين سألتها أختها عن الحزن الذي أعيا قلبها بكت كثيراً، كأنها طلبت منها أن تسكب المزيد، غطّت عينيها وشهقت، عانقتها رنا كثيراً، أقلقتها هذه الآلام، ظلّت تسأل بإلحاح، وتلك تبكي والدمع يتساقط لقلب عطش فلا ترويه ألف دمعة، وظلت على هذه الحال حتى نامت من فرط البكاء.

حين عاد مالك اقترب من بيت نرجس، وقف أمام دارها، أراد أن يطرق باب الألم ليوقظ ساكنته من أحلام تعيشها، ليخيّرها بين واقعه وواقعه، لا خيار ثالثاً، لنقل خيارٌ واحدٌ لا ثاني له، يجب إرغامها على عشقه كي تتألّم مثله، الحب ليس مشتركاً بينهما، هي تنعم بالسعادة وهو يتلظّى بنار الحب.

نامت كل العيون، نام المتسوّل على الأرض، وبقي هو يتمشّى قبالة بيتها، يقف كل لحظة متلهفاً أن تفتح النافذة ليسطع نورها، لكن هيهات أن تفعلها، وإن فتحتها، لن تكون من أجله.

في باحة المدرسة، سألت هناء عما حصل، فصمت دارين وكتمها مشاعرها يؤكد أن هناك كلاماً كثيراً في قلبها، وكأن دارين قررت أن تهيم به صمتاً. قالت هناء:

- أتعرفين أمراً يا دارين؟ أواسيك كما كلهم يواسي مالكاً، أطلب منك في كلّ صباح أن تغادريه حين يحتلك شعور الخيبة، أن تتركيه

إلى الأبد ولا تعودي إلى ذكره، والجميع يحدّثون مالكاً بما أحدّثك الآن، فاغفري جرمه، لأنه متعذّب مثلك وبنار الحبّ يتلظى.

- ما يزعجني ليس كما تعتقدين، ما يؤلمني أن كل محاولاتي لجعله يحبني تبوء بالفشل حين ينظر إلي على أنني مازلتُ صغيرة على الحب. بسببه كرهتُ الدراسة والمدرسة، وقصر قامتي، وصغر سني، وبسبب نرجس أيضاً، كلاهما يراني صغيرة على الحب، يعاملني كما يعاملك، لا يراني أنثى ناضجة بل أختاً له، وإن ترك نرجس فمن المحال أن يفكّر بي كحبيبة، في كل مرة نتحادث ينتهي الأمر بجرحه لي، يجرحني ولا يداويني، لا يمنحني مضاداً حيوياً لكلامه الآثم في حق نفسي.

تنهدت هناء وابتسمت دارين مرغمة وقالت:

- رنّ جرس الحصة، فلننس الحبّ ونهرع إلى الدرس.

أمسكتا أيدي بعضهما وركضتا، والدمع يتطاير من المقل.

دخلت دارين بيت نرجس، في كل مرة تيئس من غرامه، تذهب إلى نرجس لتسعد بردود نرجس الباردة عنه، فيطمئن قلبها إلى أنها بعيدة كل البعد عن غرامه.

جلست في الصالة وتمنت أن تصحبها إلى الأعلى، حيث الجنة المحرّمة على الجميع، تريد أن تستمتع مثلها بالعزف والرقص والغناء. لكن نرجس ترفض أن يصعد أحد إلى ركنها السري.

- لمَ تصرّين على كسر قلبه؟

نظرت إليها شزراً، وقالت:

- أهو لزامٌ علي أن أعتذر؟
- اعتذارك لن يعيد ما فات، كالخطأ الطبي، الاعتذار لن يعيد المريض إلى الحياة، وأنتِ قتلت قلبه مراراً.

- لم أطلب منه أن يركض خلفي كجرو ضائع، افهمي يا دارين، لن أرضى بأقل مني كي أرضيك وأرضي رغباته، أنا أستحق الأفضل، ومالك طبعاً ليس الأفضل.
- يكفي أنه مولّع بغرامك.
- وما أفعل بغرامه؟ هل سيمنحني المعجزات السبع.
- سيمنحك أرقى من ذلك. الحبّ يا نرجس.
- خذيه أنت، لا رغبة لي بحبه، سأرميه لك كلما أتاني، فحظاً موفقاً.
- أهو قمامة فترميه لي؟
- وأكثر من ذلك، في استطاعتك أنت أيضاً أخذ أسوأ فكرة عني لن فتنصرفي من بعد.

حدّقت بها كثيراً، فيما تلك أشاحت وجهها عنها، وغادرت البيت، أغلقت نرجس الباب خلفها بقوة، وقفت تتأمل مالكاً وهو منكبّ على عمله، والمتسول يستجديها في مساعدة مالية، طفرت دمعة من عينيها،

مسحتها واتجهت إلى بيتها. لن تخبره بما باحت به نرجس، ستزيد من عذابه وألمه، يكفيه ما لقي من أذاها.

مرّت نرجس بين الطاولات بسرعة، تنقل عينيها بين الجالسين كعيني سنور بري يبحث عن فريسة، لمحته أخيراً في طرف صالة المطعم، اندفعت نحوه بسرعة وضيّقت ما بين حاجبيها، اتسعت حدقة عينيها وتسارعت أنفاسها فيما تمشي مسرعة في الممرات الضيقة، المقهى ((النرجسي)) ذاته، هكذا حدّثت نفسها. ارتطم فخذها غير مرة بزوايا الطاولات، لم تلقِ بالاً لكلمات اللوم الخارجة من أفواه الجالسين الغاضبة منها، لحظات قصيرة ووقفت أمامهما كأنّ عينيها لا تصدّقان ما تريان

ضربت الطاولة بيدها لتنبههما إلى وجودها، انتبه إليها بيان وكذلك نازك، نظر ببطء إلى وجهها الذي كسته حمرة شديدة، وإلى عينيها المتقدتين بنار الغضب، أمسك بيد نازك قليلاً ليمنحها الأمان وليحميها من الدخيلة الهائجة. وبعدها ترك يدها ووقف بهدوء، يداه في جيبي بنطاله، انفرجت عن فمه ابتسامة نصر وثقة بالنفس، وقال لها مرحباً:

– أهلاً نرجس، كيف الحال؟

مدّ يده مصافحاً، أتراه مازال مغرماً بها؟ استنكرت عليه نازك هذا الفعل، ارتعش قلبها بسبب الهدوء غير المتوقع من نرجس، لم تمدّ يدها هذه الأخيرة، سحب يده بهدوء ومسح حبات العرق المتساقطة من جبينه بمنديله الورقي، ظلت تتأمله صامتة، ألم يمنحها وعداً بالانتظار لتغرم به كما هو عاشقاً لها؟ لماذا تنصل من وعوده بهذه السرعة؟ قطع صمت تأملها وقال:

- لقد تيبست روحي من الانتظار، أفرغتني من الحياة وأنا أنتظرك على عتبتها حتى تعبت روحي وملّ قلبي.

قاطعته نرجس كلبوة مفترسة:

- ولم تجد إلا هذه؟
- اتركيها وواجهيني، بعد مراحل متعددة من الوعود كان لزاماً علي أن أحقق الفوز على قلبي. وها قد نجحتُ في ذلك.
- ألم تعدني أن تنتظر؟

- القلب لا يلوى كالذراع، لا تساومي على قلبي، الكرامة خُلقت قبل الحب، أقتل قلبي إن فكّر يوماً أن يتآمر على كرامتي.
- أنا نادمة على معرفتي بك، لا على خسارتك، لا تعتقد أنني سأبكي في حضن أحدهم من أجلك.
- خدعتُ بكِ دون وعي مني، تورطتُ ومشيتُ في درب هواك مغمض العينين، فتعثرتُ ووقعتُ مراراً حين خذلتني بوعودك، لذلك كففتُ عن انتظارك، لن أكون كشجرة بائسة تنتظر من يرويها يا نرجس.
- فوجدت هذه، لن تكون أكثر من راقصة غير محترفة، لن تكون نجمة لامعة، لكنها على مقاس أحلامك.
- استيقظي يا نرجس قبل فوات الأوان، غرورك سيحرق كل جميل فيك، أنا وأنت كذكر القنفذ وأنثاه، كلما حاولنا عناق بعضنا أهلكتنا الأشواك، وإن تباعدنا أهلكنا الفراق.
- هذا اعتراف واضح بالحب يا بيان.

- في إمكانك عدّه الاعتراف الأخير، لا أرغب في انتظارك بعد الآن، لأنكِ لم تغرمي بي، وإنما كنت مغرمة بالحب فقط، أنت لم تتعلقي يوماً بإنسان، لأنك متعلّقة بذاتك. سيسهل عليك أمر فراقنا، فتجاوزيه وواصلي حياتك كما كانت قبل أن نلتقي، لستُ محطتك الأخيرة يا نرجس، وإن انتبهتِ جيداً فستجدين عابري سبيل في كل محطة تمرين بها. أنتِ يا نرجس استخدمتني لتمارسي الحب فحسب، وتسعدي نفسك، أي إنني وسيط بينك وبين الحب، لم تغرمي بشخصيتي وإنما أغرمتِ بحالة الانبهار والإعجاب التي غمرتك بها.
- كفاك فلسفة لا تفقه منها شيئاً.

ضحك بيان، ثم قال:

- هكذا أنت، من الصعب أن تعترفي بعقدة النقص فيك، أنا تعبتُ يا نرجس، فوضعتُ نقطة في نهاية السطر، أريد استعادة بريقي

منك لأضيفه إلى روحي التي خمدت بسببك، لن أدعك تختلسين شيئاً من توهجي، لتتوهجي أنتِ بدلاً مني باسم حبّ لا تعترفين به.

أشاح بيان وجهه عنها، وأشار إليها أن تنصرف، انفعلت كثيراً، لن يهزمها هذا البيان، فصرخت:

- وضيع مثلك لا يستحقّ العيش إلا وسط الحثالة.

ألقت نازك الشوكة من يدها بقوة في طبق البطاطس المقلية، ونظرت نحوها بطرف عينها، ثم نظرت إلى بيان، ثم إليها، عقدت ما بين حاجبيها وقالت:

- هذا المكان ليس به إلا حثالة واحدة، ترتدي فستاناً أصفر وحزاماً عريضاً في محاولة منها لإبراز مفاتنها.

ضربت نرجس بيدها على الطاولة فاهتزّ كأس الماء أمامها، وتناثرت قطرات منه على الطاولة، صرخت بوجه نازك:

- مثلك لا يستحق سوى الصفع، لكنني لن ألوث يدي بملامستك.

اتسعت فتحتا أنف بيان وشدّ ذراع نرجس بقوة، حتى كان أن يكسرها، سحبها بقوّة إلى خارج المطعم، وهناك تركها تلملم كبرياءها الذبيح، خرجت الكلمات من فمه سريعة مختلطة بالرذاذ:

- كفاكِ غروراً، قبل أن تنظري إلى المرآة انظري إلى داخل نفسك جيداً، ليتك تملكين روحاً جميلة على درجة من جمال ملامحك، لقد قيّدك الغرور وتضخمت أناك، فبتِّ لا ترين سواك، لقد سئمت حالي وكرهتها بسبب غرورك المتعالي.

تركها وعاد إلى الداخل، ارتمى على كرسيّه، أخرج زفيراً قوياً من صدره، كأنه يتخلص من بقايا دخان خنقه سنوات، نظر إلى نازك فوجدها تحدّق به: قالت:

- أخشى أن تقف في طريقنا.

- من المحال أن تفعلها نرجس، ستحمل كبرياؤها وتمضي بعيداً.

- أشكرك، لأنك فعلتها من أجلي، واقتلعت حبّ نرجس الضار من حياتك.

- أنا من وجب عليه أن يشكرك، بفضلك فتحتُ عيني على وهم ابتدعه قلبي وصوّره ذهني، وهو وهم حبّ لا وجود له، كنا نلعب وإياها لعبة غريبة، أقترب فتبتعد، ابتعد فتقترب، أحارب وحدي شعور الحب وهي تحاربني بهذا الشعور، لم تهدني يوماً فرحاً ولا جبراً، لم أشعر معها بأمان الحبّ.

- وانتهى كلّ شيء الآن، فلا تأتي بطيف ذكراها.

ابتسم وابتسمت، ابتدأت علاقة جميلة، لطيفة للغاية، وجد بيان من تحبّه بطريقة صحيحة خالية من الأخطاء، لا طريقة الالتواءات التي لكثرة تعرّجها ارتطم بصخور الخيبة مرات عدة، ووقع في بئر التجاهل كثيراً، ولم يصل إليها، ولم تقترب من حافة انهياره، بل ظلّت بعيدة عنه، سعيدة بغرامه، شقيّة بقربه، ظلّت تمنّيه بالانتظار حتى ملّها.

أما نرجس فقد جلست في حديقة المقهى بجانب زهور النرجس، تحت فيء شجرة الزيزفون، تفكّر في عدد معجبيها، حذفت بيان من القائمة، أطلقت تنهيدة ولم تنسكب دمعتها الوحيدة، لن تبكي على رجل سعيد من دونها، ستفكر فيه كثيراً ويرهقها التفكير ولن تبكيه، ستعزف معزوفات موزارت، بيتهوفن، باخ، وترقص الباليه ولن تبكيه، ستقف أمام مراياها الجدارية الأربع تتمتع بجمالها وتغنّي كثيراً ولن تبكيه، ستكتب إلى أن تملّها الكتابة ويبصق القلم في وجهها كي تعتقه ولن تبكيه.

كان يحبها مذ أن تشاركا مدرسة واحدة، كان محطّ سخريتها بسبب خجله المتزايد، تستهزئ به ومعها صديقاتها لشدّة ما يتلعثم أمامها، ينطق نصف الأحرف ويختنق ببعضها، كانت دائما تضحك منه وتقول له أمام الجميع "حين تنطق الكلمات على نحو أوضح تعال إلي" وتضحك مع الفتيات منه.

كان فصيحاً في اللغة، ثرثاراً أمام غيرها، أبكم أمامها، تدور في رأسه عشرات العبارات عن الحبّ، وحين يلتقي بسواد عينيها وبياض بشرتها وشعرها الأسود الطويل، تختلط العبارات في رأسه ولا يعرف بأيّها يبدأ.

رحلت تلك الأيام بجدّها وهزلها، تناست نرجس الكثير من هذه الذكريات متعمّدة، والقليل أبقته في خزانة الذاكرة تعود إليه حسب حاجتها.

هنا في مقهى (النرجسي) كان أول لقاء لهما، وفيه اعترف بحبه وغرامه، وصرّح بأنه اختار لها هذا المقهى نسبة لاسمها، حينها طلبت منه الانتظار، وفيه اعترف لها بأنه ملّ الانتظار، كان لقاء من نوع آخر، فيه امتزج الألم بالخيانة، ونقض العهود، بكبرياء انطفأ، وماضٍ لن يعود.

منذ متى تقترب علاقته بنازك من الألفة والمودة، وكل هذا وهي غافلة، كان يراقصها بكلمات الحب والغزل على مرأى من نازك ومثيلاتها. فكّت شعرها، تركته ينسدل على كتفيها كشلال غزير، ثم ربطته بعد عدة

دقائق، كررت فعل هذا الشيء أكثر من خمس مرات، وفي النهاية ملّته وتركته ينسدل، تركت المطعم خلفها ومشت إلى الأمام غير مكترثة بمقهى نبت فيه حبّ جديد على أطلال حبّ قديم.

كانت نظرات الاشتهاء تطلّ من أعين الرجال نحوها بسبب ثيابها المغرية، لم يزعجها هذا الشيء، بل تمايلت أكثر في مشيتها، ومشت في دلالٍ أمامهم، سرّها أن تكون مرغوبة من الجنس الآخر، أعجبتها نظرة الاشتهاء في عيون الرجال، هي ليست شهوانية، بل مدمنة للإغواء.

ما يجعلها تكمل حياتها سعيدة هو ما يقدّمه الرجال من قرابين الودّ والهوى، وهذا يشعرها بالتضخّم، فإن تلاشت هذه الرغبة عند الرجال اقتربت هي من الفناء، فمددها النرجسي يمتدّ بقدر ما تقدّمه من غواية، وما يقدمونه من اشتهاء وغزلٍ صريح.

وقفت أمام مرآة سيارة تتأمل جمالها وطلّتها الساحرة، أعجبها انعكاس صورتها على زجاج السيارات، قالت في سرّها "لستُ المذنبة، هو الخاسر والمذنب، لا يستحقني، أنا أستحق الأفضل"

عادت إلى البيت واحتمت بجدران غرفتها المغطّاة بالمرايا، هنا لا ترى سوى نرجس، وقفت أمام إحداهن تغازل جمالها، فهي أجمل من تلك الوضيعة التي تخلّى عنها بيان بسببها، هي أكبر من أن يجمعها به مكان، لا يستحق بيان ربعها بل لا يستحق جزءاً من جسدها، أو جزءاً بسيطاً من اهتمامها أو تفكيرها.

خلعت فستانها الأصفر ورمته أرضاً، تأملت جسدها الغضّ في المرآة، صرخت "أنا لستُ شيئاً يضاف إلى العالم، أنا العالم بحد ذاته"

قد كبرت عما كانت عليه، لم تعد طفلة، هذا الجسد يحتاج إلى من يشبع رغباته، لكن كيف السبيل إلى ذلك، بيان لم ينتظرها وأصدر بياناً بالتخلي عنها دون أن يشفق عليها، لا، لن تدعه يشفق عليها، أدارت

محرّك الأقراص، ظهر لها على الطرف الآخر سمفونية ((جوبيتر ٤٠) لموزارت، وعلى إيقاع نغماته الكلاسيكية ارتدت ثياب الرقص، دائماً ما تهرب من أوهامها إلى ساحة الرقص، أظهر فستانها الوردي جزءاً كبيراً من مفاتنها، ارتدت حذاءها المصنوع من الجلد، شدّت ساقيها وأفردت ركبتيها، شدّت عضلات فخذها، أنزلت كتفيها إلى الأسفل، ركزت جسدها كلّه على ساقها اليمنى، فيما أبقت ساقها اليسرى حرّة طليقة، وبدأت برقص استمرّ ساعة، قفزت في الهواء كما يحلو لها، وقفت على رؤوس أصابعها ودارت عدة دورات، لفت ساقها إلى الخلف حتى أوصلتها إلى رأسها، فيما ظلّت واقفة على ساقها الأخرى.

خارت قواها فارتمت على طرف سريرها، أراحت جسدها من جهد الرقص وعبء الفراق الذي حلّ بها ولم يرحمها، خلعت حذاءها ورمته، مسحت عرقها بمنديلها، ووقفت عند نافذتها الخشبية، راحت تنظر إلى الحي الضيق، أزعجها صراخ الباعة المتجولين، لم يمل المتسول من الصراخ واستجداء الناس كي يمنحوه ما يسدّ رمقه. همت أن تغلق

النافذة، لكن تراءى لها مالك ونظرات العشق تنفر من عينيه، عينان تترقبان الحبّ، كأنه الآن هو الصياد، لكنه فاشل في اصطياده، هي ليست فريسة سهلة. تأملته دقائق، ثم بادلته بنظرات استحقار كعادتها، لم يفهم بعد أنها لا تراه بتاتاً، وإن أقبل نحوها أو سار في الشارع ذاته الذي تمرّ به، ستغيّر مسارها قبل أن يحتكّ كتفها بكتفه.

أخبرته جدّته فيما مضى ألا ينظر إلى نافذة في الأعلى قد فُتحت، ولكن قبس نورها دائماً يبهره ويسطع جواره، ضرب نصيحة جدته في عرض الحائط، ونسي ما أخبرته عن يوم سيأتي يلتجئ فيه إلى قبرها باكياً عنقه المصابة لكثرة ما رفعها عالياً إلى نافذة لن تفتح له يوماً.

كان يعمل مستعملاً سيارة قديمة، يملأ إطارها بالهواء وبعدها يفرغها من الهواء، كلّ ذلك وهو شارد فيها، لم يكن له عمل سوى هذه السيارة المنحوسة التي جلبها صاحبها في الصباح الباكر، لم يعرف أنها ستبقى رهينة عند مالك يستخدمها ذريعة لرؤية محبوبته.

قطع هشام سلسلة أفكاره، صرخ في وجهه حين رآه يعيد الكرّة تاسع مرة، جمد مالك في مكانه كأنه استفاق في التو من أحلام جعلته عريساً لنرجس، وحوله تتراقص الفتيات في نشوة وحبور.

نظر مالك إلى عجلات السيارة وأطرق رأسه أرضاً، كانت تلك قد أغلقت النافذة هاربة من التلوّث السمعي الذي وصل أذنيها من صراخ الباعة الجوالين والمتسولين.

غاب الكلام عن ساحة مالك، تأمل يديه المملوءتين بالشحوم، وأدرك ما اقترف من خطأ، لم ينبس ببنت شفة، يعرف أن أي كلمة سيقولها لن ترحمه من لسان هشام الغاضب.

اعتذر مالك وملأ الإطار دون أن يفرغه هذه المرة، سكت هشام ولم يعقّب، يعرف بأن عقله مشغول بمن سرقت قلبه، وأودعت بدل عقله حشائش لا تفي بالغرض.

جلس في الدكان وحده بعد رحيل هشام، يحتسي كأس الشاي ونظره مثبّت في الأعلى، يأمل أن تفتح النافذة، بينما عقله يصارع قلبه ويخبره بلهجة شامتة أنها لن تفتح النافذة أبداً.

جاء صاحب السيارة وأخذ سيارته، نظر مالك نظرة أخيرة إلى نافذتها، لمَ لا تعطيه فرصة واحدة، يشرح لها حبه وغرامه، سيغرقها بالهدايا، سيعمل ليل نهار ليجلب لها هدية واحدة تليق بمقامها، سيفعل ما تطلبه منه وتحلم به، لو منحته فرصة واحدة فحسب. أغلق الدكان وحبل أفكاره مازال يولّد أفكاراً جديدة، وذهنه مازال بارعاً في التقاط الأحلام.

مشى في حيّه القديم، في دجى الليل، بنت العناكب بيوتها حول المشاعل الصفراء المهجورة، أصبح مالك هشاً قياساً بما كان، كلمة واحدة تجرحه، وحرف واحد يبعثره، لذلك هشام كثيراً ما يذكّره بوصيّة جدته، كلّما رأى عنقه مشرئبّة نحو النافذة في الأعلى، كي لا يقتات

الألم والذل ويعود بخيبة وخذلان، لكن مالكاً لم يستمع لجدته، لأنه يظنّ هذه النافذة نافذة أحلامه، وطريق ولوجه عالم الوله والدله.

وصل إلى بيته، بحث عن حمّالة مفاتيحه، لم يعثر على أثر لها، انتبه إلى أنه نسيها في قفل الدكان، رجع هرولة، مشى وركض مرّات عدّة، تلمس قلبه النابض الذي كاد يتوقّف من كثرة الركض، والمشي السريع، والخوف من سرقة المفاتيح. وصل أخيراً، وجد المفاتيح في القفل، سحب المفاتيح من القفل، وقف برهة ينظر إلى الأرض كيف أضاءت بنور متألق، نظر إلى الأعلى، فرأى نافذة عروس القصر قد فُتحت، لم تطل منها أميرته التي خلقت من نور سماوي، ظلّ واقفاً يتمنى أن يحظى بمرآها، لكنّها ضنّت عليه كعادتها. قفل عائداً إلى بيته لا يلوي على شيء، ظلّ يقبل المفاتيح كلّ دقيقة لأنها أوصلته إلى النافذة المفتوحة، وإن لم يرها فهو يعرف أنها مختبئة خلف الستائر، تنظر إليه وتتأمله.

ارتدت نرجس ثيابها في الصباح، ما إن خرجت من الباب حتى التقت بدارين، قالت الأخيرة:

- عمتِ صباحاً يا نرجس.
- عمتِ صباحاً يا دارين، ما بكِ تزدادين قبحاً مع الأيام؟
- أنا!!
- ألم تنظري إلى هالاتك السوداء في المرآة؟ لا رجل يستحقّ أن تشوّهي جمالك من أجله.
- سئمتُ من البحث عنه.
- أمتأكدة أنتِ؟
- لن أبحث عن الحب في أماكن لا يكون فيها.
- لقد كبرتِ في يومين.

نظرت دارين إلى نرجس، ثمّ قالت:

- محظوظة أنتِ يا نرجس بهذا العدد الهائل من المعجبين، فيما تزدرينهم كذباب يحطّ على نافذتك، محظوظة بما تملكين، وتعيسة أنا بما أملك.
- أهذا حسد يا دارين؟
- طبعاً لا، أغبطك فحسب، ففي استطاعتك أن تذيبي قلوب الرجال إن أردتِ، بينما لا أطلب من الحياة سواه، كلمة حانية فحسب منه وبعدها لا يهمني العالم كلّه، وهو يصرّ على إغلاق قلبه أمامي.

غادرتها دون وداع ودون أن تدع نرجس تكمل كلامها معها. اقتربت نرجس من المتسوّل وصرخت في وجهه كي يكفّ عن النواح من الصباح الباكر.

عزفت في المعهد أمام الطالبات، غنّت لهن بصوتها العذب، يشاركنها جميع الطالبات حتى لينا، سرّت بهذه المشاركة، ربما تتمكن من الوصول إلى خلجات قلبها بالتقرب منها، ومع أن نرجس لا تعيرها

اهتمام إلا أنها تركت الجميع في الاستراحة وجاءت لتجلس جانب نرجس، صاحت هذه الأخيرة:

- أمن كل المقاعد، لم يعجبك سوى جواري؟

ابتسمت لينا وقال بهدوء:

- جاور المبدع تبدع، جاور الجميل تصبك عدوى جماله.
- كلام لا غبار عليه، لكن لا تحاولي أن تكوني لطيفة معي.
- أي لا اقترب.
- طبعاً، لا تقتربي.
- ولن ابتعد كذلك.

رمقتها نرجس بنظرة غاضبة، وصرخت في وجهها:

- ألم تفهمي بأنني لا أطيق مجالستك.
- سأبقى أحاول معك يا نرجس، حتى آخذك بيدي إلى المنزل، فقد اشتاقت إليك أمي كثيراً.

حملت حقيبتها وغادرت، فكرت نرجس في قول لينا الأخير، أيعقل أن تشتاقها سهام؟ سهام التي تخلّت عنها منذ زمن ولى، أتشتاقها الآن؟ طردت الأفكار من عقلها، لا يمكن لسهام أن تشتاق، فهي لا تملك قلباً كبقية البشر.

وفي بيت سهام، صرخت في وجه لينا قائلة:

- ومن أخبرك بشوقي إليها؟
- عبراتك كل ليلة على الوسادة، تأملك صورها التي تحتفظين بها تحت وسادتك، ما دمتِ تودّينها، فدعيها إلى حضنك.
- نرجس لن تعود.
- ستعود إن أردتِ ذلك.
- بالله عليكِ، كفّي عن هذا الكلام، الطريق إلى نرجس أصبح وعراً، لا يمكنني الوصول إليها أبداً.

- لكن إن توسلتِ إليها، وبكيتِ في حضرتها فستعفو عن ذنبك في حقّ طفولتها.
- لا شيء أسوأ يا لينا من أن يعاودك شعورٌ قديمٌ جاهدتِ طويلاً لنسيانه.
- ستنسى نرجس ماضيها إن رأتكِ.
- أنا أكثر الناس معرفة بها، فقد ربيتها خلال ثماني سنوات، غفت في حضني ونامت على صدري، ربيتها مذ كان عمرها سنة واحدة، لن تغفر لي جرمي، لقد كبرت بعدد أيام الألم التي عاشتها، لا بعدد سني عمرها.
- ولكن يا أمي.
- لم يعد في وسع هذا القلب أن يصرخ أكثر، ها أنا أكفّر عن ذنبي، وهي تعرف ذلك، دعيها تعش الرفاهية التي تحبّها، ودعينا نعش حياتنا كما يجب.

تحسست لينا قلبها، وتنفست بصعوبة بالغة، مشت ببطء إلى غرفتها، دون أن تنتبه سهام لها، كانت تبكي ذنبها الكبير في حق نرجس، ارتمت لينا على السرير، كان الشهيق والزفير بطيئاً للغاية، جاهدت أن تتنفس، سحبت علبة الأقراص من جانب وسادتها، وابتلعت قرصاً، نامت تعباً، حزناً، ألماً، اشتياقاً.

جلست نرجس في المقهى الكبير، تنتظر الغريب، بعد أقلّ من ربع ساعة جاءها، جلس في حضرتها، ضحكت، ابتسمت، معه وحده ترجع طفلة صغيرة، قالت بمرح:

- كيف تعرف مكاني؟

خلع قبعته وقال باسماً:

- قلبي يدلّني على مكانك.
- ولم يدلّك على ألمي؟
- عرفت إلى الآن كلّ ما حصل معك.
- اخلع نظارتك. أرغب في رؤيتك جيداً.
- وأنا أراكِ جيداً.
- ولكنني لا أرى من أتكلم معه، أرغب في معرفة لون العينين اللتين تتبعانني.
- ستعرفين لاحقاً كل ما يجول في ذهنك.

- إلى متى؟

- حين يحين الموعد، لا تتعجلي القدر.

سكتت هنيهة ثم قالت دون أن تنظر إليه:

- أنا تائهة، تائهة كطفل أخذه والداه إلى مدينة الألعاب، وأضاعوه هناك، شعور ذاك الطفل وهو بين الزحام ولا أثر لوالديه كشعوري أنا الآن.

- ستجدين الحب بين الناس.

- أنا أعيش مع مجموعة من البشر الضائعين.

- لك دارين، اتخذيها صديقة.

- حديثة عهد في الحب، مفتونة بمالك وهو مفتون بي، تغير من حبّه إياي كثيراً ، كأنني من أجبرته على هذا الحب.

- وبيان؟

- خائن، خانني مع نازك.

- ليس كل الناس يملكون موهبة الانتظار، حتى أنتِ لا تملكينها.
- لا أستطيع ترجمة الشعور الذي غمرني حينها، لا يمكنني شرحه بكلمات موجزة، لا أستطيع تحديد الشعور الذي انتابني، لكن ما أعرفه أنني لم أكن بخير.
- كان هذا سيحصل عاجلاً أم آجلاً، لا تختبري صبر الناس، ليسوا جميعاً يملكون صبر الأقوياء.
- لينا تضايقني كثيراً، تجلس جواري أغلب الأوقات، أشعر أحياناً بأنها تتمنى مني عناقاً كي تطيب روحها، وأحياناً أراها تسخر من وحدتي.

قاطعها:

- تريدك أن تسكني معهما، وهذا دليل محبة.
- لا أحبّها وأكره والدتها.

- سهام وإن أخطأت في السابق، فالآن ستكفّر عن ذنبها، وتتوب عن جميع الآثام في حقّك.

نزلت دمعتها الوحيدة، وقالت:

- إن اعتذرتْ فلن تعيد إلي أياماً كنت فيها بحاجتها ولفظتني من حياتها، لن تعيد لي دموعي التي انسكبت على باب الميتم وأنا أتوسل إليها ألا تهجرني. لم أكن أعرف غيرها، أخذتني طفلة رضيعة وثم أعادتني بعد ثماني سنوات، طفلة لا تعرف اليتم، لأجل لينا صارت أماً حقيقية، فلا حاجة لها بي، رمتني كلعبة مكسورة لا تصلح. إن مات المريض بخطأ طبي، فهل يفيد اعتذار الطبيب؟ إن كسرت الريح غصناً، فهل يفيد اعتذار الريح؟ إن أطلق السهم وقتل العصفور، هل ستعتذر الأشجار، بأن لا دخل لها بالصياد الذي سرق غصناً غنى العصفور عليه يوماً، وقتله به.

- لا ألومك على ما تقولين، هي الآن نادمة.
- ندمها لن يعيد قسوة الميتم، باختصار أن أكره العالم الذي تعيش فيه.

صمتت وصمت، مسحت دمعتها الوحيدة بمنديلها الورقي، ثم قالت بصوت مرتجف:

- أتساءل كيف تعرف كلّ هذا عني؟
- لأنني أقرب إليك من روحك ومن جدار بيتك، من الموسيقا التي تسمعينها، والمرايا التي تتأملينها.
- من أنت؟
- إلى اللقاء يا نرجس، اهتمي بنفسك جيّداً.

هبّ واقفاً، يهرب منها بسرعة في كلّ مرّة تسأله فيها عن هويّته، كأنه عاجز عن التعريف بنفسه، ما يهمها الآن أنه هدية القدر إليها. تركها تلملم شتاتها وتبحث عن نفسها بين النفوس التائهة.

رفعت شعرها، عقصته إلى الخلف، ربطته بشريطة صفراء، حملت حقيبتها واتجهت إلى المعهد.

وقفت في القاعة تستمع إلى عزف الفتيات الصغيرات، الدرس اليوم بحضور زملائها ومدير المعهد، أسرت قلوب الشباب دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها.

حان دورها، عزفت مقطوعة ((ذكريات الماضي)) لشوبان، الكل تهامس على إطلالتها الفريدة وعزفها الجميل، جذابة في كلّ شيء، لم تلتفت إلى كلمات الإطراء، تعرف أنهم يتفوّهون بالحقيقة، فهي الأولى بلا منازع.

علا التصفيق في القاعة حينما انتهت، أثنى الجميع على عزفها، وباركوا لها نجاحاتها.

خرجت إلى الباحة، جلست تحت فيء شجرة الرمان، تحتسي كأساً من الشوكولا، زميلاتها حولها يتهامسن عن سرها مع بيان، لم يعدن يلمحنها معه في الآونة الأخيرة. سألنها عنه:

- افترقنا (قالتها باسمة) أحب البقاء مع الحثالة، هذا يليق به أكثر.

صاحت واحدة:

- أبهذه السرعة؟
- اتركنني من الماضي يا صديقات، ليس ذلك ما كنت أبحث عنه، أنا دائمة البحث عن النجاح.

صمتت قليلاً، ثم همست كأنها تخاطب نفسها:

- نغيّر كثيراً، ولم يعد بيان الذي أحببته.

تركتهن يثرثرن وغادرت والكأس بيدها. همست إحداهن:

- حياتها مملوءة بمغامرات العشق.

- ترى نفسها عاشقة مثالية.
- وترى نفسها فتاة مثالية.
- هي لو أنها تخرج من هذه الهالة التي تحيط نفسها بها لأدركت أنها نسخة مكررة من مئات البنات حولها.

ضحكت الفتيات من نرجس وغرورها، فهن يعرفن أن بيان هو من نبذها لا العكس.

عادت إلى البيت تخطو دروباً واسعة ثم ضيّقة، خطواتها سريعة حين تفكّر بالنجاح، بطيئة حين تفكّر بالهوى، أيعقل أن تبقى وحيدة في الحياة دون أن يشاركها إياه حبيب تغرم به؟

تصارعت الأفكار في رأسها، ضجيج وأصوات لا حصر لها، النجاح ينتظرها أمامها، ماضٍ تتمنى نسيانه، حاضر لا تدري إلى أين سيوصلها، إلى الأمام، أم يعيدها إلى الخلف.

وصلت إلى الحي، العينان الصغيرتان مازالت تراقبها، تتمنى لها أن تهوي في بئر الهوى، نظرت إليه كأنها تريد أن تفهم ولهه المتزايد بها، وتفهمه أنه لا شيء عندها، سيعاقبه القانون يوماً ما على هذه النظرات، لأنها تنظر إلى ما ليس لها، تفحصته من رأسه حتى أخمص قدميه، ودلفت إلى البيت، تمنى لو قالت حرفاً واحداً تنسيه آلام الهوى، لكنها صفقت الباب خلفها، صعدت إلى غرفتها، فتحت نافذتها للغرام، وجدت عنقه مشرئبة نحوها، وفي قلبه هيام كبير، جعل له أجنحة فطار إليها وعانق حبها في غفلة عنها.

أيعقل أن تغرم نرجس بشاب كمالك، وهي تعشق أناها إلى درجة العبودية. بدأت تنسى بيان، لم تعد تفكر فيه، من نسيها متعمداً وجب عليها تناسيه، هي الأولى بالغرام من تلك الغبية، وهو لا يقل عنها غباءً، سيندم يوماً على تركه إياها، أيعقل أن تمتدّ حاجتها للحب إلى غرام مالك، هذا ما تخشاه وتتجنبه _الوقوع في غرامه_

تشجع وهمس لها بصوت رقيق باسمها، رسم لها في الهواء قلباً متيّماً، قطبت حاجبيها خائفة أن تفتح نافذتها لحب هشّ يخبو مع أوّل هبة للرياح، أغلقت النافذة خوفاً على نفسها من وهم الغرام.

وسيم هو مالك، ما دفع دارين لغرامه، وتكتب حكاية حب لن يقرأها، لكن لن يكون لنرجس ولن تكون له، لن يسرقها من عبثها سوى أمير يأتي إليها في سيارة من الطراز الرفيع، يرسم لها الحبّ في قصر كبير يناسب طموحها وأحلامها، يناسب نرجس ذات الجمال الرباني.

خلعت ملابسها وارتدت منامتها، جفاها الكرى، وسرق النوم من أجفانها، نظراته المتوهجة بنور الحب تطاردها، فأصابت معدتها بتوعك شديد، ولازمها الأرق، فأثقل رأسها بالصداع، لن تمرّ الليلة بسلام، أتكتبه؟ أم تعزف له لحناً أبدياً.

ستكتبه بطلاً في رواية تعشقها، فيصبو إليها، سترسمه لوحة في جدار، يغازل فؤادها كلما مسحت عنها الغبار، ستعزف لحناً ويكون وترها،

سيكون أغنية تذيب قلبها، لكنها لن تدعه يسحبها إلى عالمه، وستهرب من غرامه السخيف.

جلست تكتبه، اختارت له ((رجل الحرف)) لأنه استطاع سلب الحروف منها، وسرق الكلام من لسانها، لتكتب له قصيدة نثرية طويلة تهذي فيها باسمه، لأجلها خلق الحب ولأجلها كتبت القصائد، كأنها بدأت تطارحه الغرام، ربما لأنه الوحيد الذي تحدّى وجازف واقترب من حيّزها الجغرافي.

وجدت قلبها يهيم به حبّاً، لكن عقلها أقلع عن الفكرة بسبب ملابسه البالية الرخيصة، لا، لن تدعه يقترب منها، فمن كانت مغرمة ببيان، أيعقل أن تحبّ شاباً كمالك، سيضحك منها حين يراه يعانقها، أو يرى يده في يدها، لا، من المحال أن تعشقه، ولن تدع قلبها يجري خلفه، لن ترضى بأقل من بيان، سترتفع كعادتها ولن تسقط في فخ مالك.

لو أصبحت زوجته فستتلوث يديها بزيوت السيارات، سيأمرها أن تغسل يديه المفحمتين، لا، لن تفعل ذلك أبداً. ستكتفي بعبارات الغزل التي يطربها بها على الدوام، وستسرّ بالقلوب التي يرسمها لها، وقبلاته الحارة التي يرسلها مع الريح. مالك الوحيد القادر على إرضاء غرورها، ولكن لن يرضيها لا هو ولا غيره، لن ترضى سوى بأميرهم.

خطّت كلمة ((نرجس ورجل الحرف)) في أعلى صفحة الـ word، وبدأت تكتبه، كأنه نجم من نجوم هوليود، أسقطت عليه الصفات التي تعشقها في الرجل، نزعت منه الصفات التي تسوءها، زينته لناظريها، رحبت به في عقر صفحتها، رسمته أميراً كما رغبت، ونزعت عنه رداء الفقر والحاجة.

دقّ قلبها دقّات كثيرة يعلن انتصاره، لكن لرجل خُلق من أحرف، فهام بها وأشبعها دلالاً، لثم عنقها بمئات القبلات الحارة. وغنى لها في ليالي

الصيف أغاني كثيرة، رقصت له وراقصها، عزفت له فطرب قلبه وصفّق لها.

سمعت طرقات على الباب من طارق لحوح، استاءت من القادم الذي خرب لحظة رومانسية، كثيراً ما تكره أن ينتزعها أحدهم من شيء تحبه، لن تفتح للطارق، ربما كان شخصاً لا ترغب فيه، ولا ترحب بزيارته، لكن القادم كان لحوحاً، يصرّ على الدخول. نزلت إلى الأسفل تتوعد من جاءها إذ قطع سلسلة أفكارها برسم الحبيب المنتظر، وجدت دارين المشاكسة بالباب، أفسحت لها الطريق لتدخل دون أن ترحّب بها، جلست دارين في مكانها المعتاد، سألتها عن سبب وجومها، فتذرعت بصداع أثقل رأسها، تأملت دارين المرآة الجدارية، سألتها عنها، فهي لم ترها من قبل. أجابت نرجس:

- إنها جديدة، أليست جميلة؟

- طبعاً جميلة.

- عالم المرايا كبير وواسع، كلما كبرت المرآة كبر العالم الذي تحتويه، فأمامها ستشعرين أن أثاث الغرفة قد تغيّر مكانه، كل ما خلفك سيبدّل مكانه، أتمنى أن أدخل إليها، فأغيّر نمط الأثاث كما في المرآة.
- كأنك تعيشين في عالم المرايا أكثر مما تعيشين في الواقع، الواقع ينتظرك خارجاً أمام منزلك، يشبه الأحلام والأساطير، ربما تجدينه يشبه المرآة لشدّة جماله، الحبّ فيه سيكون حليفك، لا تترددي واخرجي إليه.

انتبهت نرجس إلى ما تلمّح إليه دارين، صمتت قليلاً، ثم ابتسمت بمرح، وقالت:

- ما رأيك أن نشرب الشاي؟

أومأت دارين برأسها، هذه المرّة الأولى التي تدعوها فيها إلى كوب من الشاي، هربت نرجس كي لا تفضحها عيناها بحب دون حبيب، وحبيب دون حب. تبعتها دارين، أرادت أن تكتشفها من قرب، صرخت دهشة:

- آه يا نرجس!! حتى هنا أجد مرايا قد زينت الجدران! كل هذا من أجل المكوث حيث أنتِ، فتتأملين جمالك، الجمال الحقيقي يكمن في الروحِ، كلنا نملك جمالاً ولكن بنسب متفاوتة، والقليل من يملك جمال الروح والأخلاق.

احتقن وجه نرجس، هذه أول مرة تحدثها دارين بهذه الطريقة، كأنها في مهمة أوكلت إليها، وضعت الإبريق على النار، عادت إلى الصالة، ودارين تثرثر عن الأخلاق والجمال، فقاطعتها بصرامة:

- لا أريد الحب الذي يأتيني من عامل فقير، ثيابه متشحة بالسواد على الدوام، يداه، ثيابه، وجهه، كل شيء يدل على عمله المتسخ، لا أرغب بعامل يعمل عند الآخرين، ولا يكفيني قوت

يومي، يسعى كل يوم ويركض لاهثاً ليحصل على اليسير من الطعام فيسدّ أفواه عائلته الجائعة، جاهل وغير مثقف، إن سألته عن بيتهوفن، فلن يجيب وسيقف كالأبله يتساءل عنه. ناهيك عن ذلك، جمالي جمال رباني _خارجي وداخلي_ أنا أعرف نفسي أكثر مما تعرفينني، ثم أنت ومالك تناسبان بعضكما أكثر، أنتما فقيران وتنتميان إلى الحي نفسه، كلاكما اعتاد العيش في الظلام، ليس عندكما طموح ولا أمل في مستقبل باهر.

امتعضت دارين من كلام نرجس، حبست دموعها من إهانات وجهتها إليها، ابتسمت مرغمة كي لا تمنحها شرف تفوّقها عليها، ثم قالت:

– هو معجب بك، وأنت تعرفين ذلك، لا يراني في الوجود كله، أخبرني يوماً أنه يميل إليك، وقلبه يصبو إلى قلبك، حبك لامس غشاء قلبه، في كل ليلة يشتدّ الوجد في فؤاده فيناجي طيفك، غارق في الاستكانة عندك، متيّم بك وغارق في بحر هيامك، فهل

يرضيك ذلك؟ ليس في حوزته مال كما تقولين، لكن في حوزته قلباً لكِ يعيش.

- وهل آكل من قلبه إن جعت؟ أألبس من غشاء قلبه إن تعريت؟ حين يشتد الظلام أناجي طيف المال وبيته غارق في العتمة. لا تصرّي على فتح موضوع أغلق ولن يُفتح ثانية.

وقفت واتجهت إلى المرآة، أسدلت شعرها على كتفيها، ابتسمت وقالت:

- نرجس لن يتزوجها رجل جيوبه مثقوبة، أخبريه عن لساني، كفاه نظراً للأعلى، كي لا تلتوي عنقه، اطلبي منه أن ينظر إلى موضع قدمه في الأسفل، ربما سيراك حينها.

كان إبريق الشاي ينادي ويصيح، هرعت إليه مسرعة، أطفأت النار وحملت الصينية، وجدت دارين قد رحلت، أعادت الصينية إلى المطبخ وصعدت إلى غرفتها، فتحت النافذة قبل أن تعاود الكتابة، وجدت دارين تحادث مالكاً، نظر إليها بانكسار ولم يرسم لها قلباً، نظر إلى دارين

وكانت تتحدث بصوت خفيض، رفع نظره إلى الأعلى كأنه يعاتبها على ما تفوّهت به في حق رجولته.

- نرجس لن تتغير يا مالك إلا حين ترتطم بالقاع، حين تتذوّق خسارات حقيقية، فتهشّم مراياها، حينها ستفيق من عالمها الوهمي.
- لن أميل إلى غيرها، لن أمنح الإحساس ذاته إلى أنثى مختلفة عنها، هذا الحي بطوله وعرضه يذكّرني بها، وإن غادرت الحي ستبقى نافذتها ملاذاً لي من عالمي.
- لا تقدّسها فترفعها إلى مرتبة الإله، هي كغيرها وأقلّ من غيرها.
- أنتِ لا تفهمين مشاعري، لأنك لم تعرفي الحب بعد. نرجس احتلت كل ركن في حياتي.

دمعت عيناها، كيف له أن يحكم على مشاعرها، لا يعرف مقدار عشقها.

– لا تحارب في معركة خاسرة، ولا تشوّه قلبك بالبقاء في علاقة تؤذيك.

غادرته وهي تهمس لقلبها "لا تنتظريه يا دارين، احتملي الوحدة، ولا تنتظريه، لا تمكثي جواره لأنك اعتدت صحبته فحسب، اهربي ولا تخشي الفراق" مسحت دموعها وركضت إلى بيتها قبل أن تتكوّم المزيد من الدموع.

أغلقت نرجس النافذة انتقاماً من جمال مالك، ابتسمت ابتسامة النصر، وجلست خلف حاسوبها، تكتب عن جماله البهي، تعشق وجهه المليح، لكن دائماً ما تستوقفها فكرة جيوبه الفارغة.

عادت طرقات الباب تثقب أذنيها، تأففت وغضبت، كأن هناك قوة تحاول منع ما تكتبه، مادام مصرّاً أن يكون واقعها، لمَ تصرّ أن يكون حروفاً على شاشة حاسوب، تكتبه وتمحوه عند أول خطأ.

نزلت مسرعة تريد أن تصبّ جام غضبها على الطارق، فتحت بسرعة، لم تجد أحدهم، وإنما ورقة صغيرة مطويّة بعناية، تنتظر منها أن تحملها وتقرأ ما فيها، حملتها بين يديها، قرأت رسالة الحب الأولى منه، رسالة لطيفة، قصيرة، يطلب منها منحه فرصة ليمارس الحب معها، ويراهنها أنه لن يستسلم، سيبقى مخلصاً لهذا الحب، نظرت إلى الدكان فوجدتها مقفلة، لا أحد في الزقاق الضيق، المتسول يفترش الأرض ويشخر، دخلت بيتها، حملت قلماً أحمر وصححت الرسالة المليئة بالأخطاء الإملائية، وطلبت منه أن يتعلم الكتابة أولاً قبل أن يراسلها. طوت الورقة وأعادتها إلى مكانها وأغلقت بابها.

أغضبتها أخطاؤه الإملائية، وها قد سقط من عينيها في محاولته الجديدة لاستمالة قلبها، صعدت ركضاً إلى الأعلى، مسحت ما كتبته، لا تريد أن تكتبه بعد الآن، ارتمت على السرير ونامت فوراً.

حمل مالك الورقة إذ كان مختبئاً في الظلام، قرأها ثم كورها، وشدّ قبضة يده عليها، كاد أن يمزقها، لكنه تراجع، أرادها حجة عليها وعلى غرورها، ليحاول الابتعاد عن ساحتها، دسّها في جيبه والشرر يتطاير منه، نظر إلى الأعلى وودّ لو تطلّ عليه من عليائها ليخبرها أنه لم يولد في برج عاجي مثلها، ظل ينتظرها حتى أرهقه الوقوف وعاد إلى البيت خائباً.

في الصباح عاد باكراً ليكمل سلسلة الانتظار على عتبة الجنون والغباء، طرد كل من جاء لتصليح سيارته، تمشى أمام بيتها وتحت نافذتها، أيقظ المتسول بصوت حذائه، يريد رؤية وجهها فيسألها العديد من الأسئلة، فتحت النافذة لتستمتع بنسيم الربيع، تلاقت العينان، هو ينظر أملاً، هي تنظر شزراً، تركته في الأسفل متألماً وعادت إلى حاسوبها تشرع في كتابته من جديد عن رجل كلمة يكون بطلاً حقيقياً كاملاً في جماله وماله وعظمة شخصيته، أحبت رجل الكلمة أكثر من مالك، قلبها يريد أن تمنح مالكاً فرصة جديدة، فبإمكانها أن تشكّله بين يديها كعجينة

طرية كما تريد وترغب، لكن عقله يرفض الانتماء إليه، ويرفض هذا العشق.

ابتكرت شخصية عظيمة، راقصتها وغنت وعزفت لها، شخصية جديرة بها، لا مالك الذي ينقصه الكثير ليفكر بها، فهو لا يستطيع شراء جورب واحد من جواربها النفيسة، لا يليق بها أبداً.

ارتدت ثيابها ونزلت ببرود، وجدته مازال يتأملها، يرسل لها رسائل عتاب صامتة. اقترب منها، همّ أن يحادثها، لكنه تلعثم في كلامه، كرسالته الورقية، ثم استجمع شجاعته وقال:

- لا تكوني أنانية، وتتعمدي عدم فهمي، لا تكوني بهذا الغرور وترفضي وجودي. أنا فعلاً فقير، لكن عندي سلالاً من الحب أغمرك بها، امنحيني فرصة لأكون جديراً بك.

نظرت إليه من أخمص قدميه إلى الأعلى ومن ثم بالعكس، ثم أجابت:

- لك ما تريد، ولكن عندي بضعة أسئلة، وإن أتقنتَ الإجابة، فسيكون لك ما تريد.

- وأنا أقبل بكل تأكيد.

- هل تعرف بيتهوفن؟ أو موتسارت؟ حدثني عن باخ؟

هرش رأسه بإصبعه وأطرق مفكراً، ثم قال:

- من يكون هؤلاء؟ أهم إخوتك؟ أم ماذا؟

ضحكت ضحكة مجلجلة، وضربت صدره بيدها قائلة:

- كيف أهيم بك عشقاً، وأنت إنسان جاهل، لا تفقه شيئاً، إن سألتك يوماً صديقة لي، وأجبتها هكذا، فستكون أضحوكة للجميع.

أطرق رأسه خجلاً، همّ أن يسألها عنهم، لكنها فاجأته بقولها:

- اذهب يا مالك إلى أخرى ترضى بالحياة التي تحياها، أنت لست في وضع يليق بي.

غادرت دون أن تمنحه فرصة الدفاع عن نفسه. تأملها المتسول وهم بمناداتها كي تمنحه مالاً يرضيه، لكنه خاف غضبها، سكت وظل يراقب مالكاً المهزوم، وهو يتمتم بأصدقاء نرجس الثلاثة "بيتهوفن، باخ، ما كان الاسم الثالث، لم تهزأ بي؟ أيعقل أنهم كانوا لها عشاقاً؟ كل شيء لديها غامض ويجعلني ارتجف" اقتربت منه دارين وقالت:

- أمازلت تحبها؟

نظر إليها بشيء من الخجل وقال:

- ألم يحن موعد مدرستك؟ لمَ تتلصصين علينا؟

جلست على الكرسي جواره وقالت:

- انتظر أختك.

ثم أطرقت برأسها أرضاً وقالت:

- موتسارت موسيقي، نمساوي، له ٢٢٦ عمل موسيقي، مع أنه توفي في عامه الخامس والثلاثين، وباخ عازف ومؤلف موسيقى ألماني، وبيتهوفن ألماني، يعزف الكمان والبيانو.

أطرق رأسه خجلاً من جهله وقال:

- كيف عرفتهم؟ هل درستهم في المدرسة؟

ابتسمت، ووقفت جواره قائلة:

- من يقترب من نرجس فهو على اطلاع دائم بما تتقنه، ثرثارة في الحديث، دائماً تخطف الأضواء من الجميع لتتحدث عن إنجازاتها، فتُخرس جميع الألسنة ما عداها، وإن حاولت أن تهمّ بتغيير مجرى الحديث سلبت منك متعة الحديث لتحدّثك عن نفسها فقط. تعتقد أنها محور الكون، العالم من أجلها خلق، ومن أجل فنائها سيفنى. لا قيمة للحياة دونها.

سكتت قليلاً، تنهدت، وأكملت:

– نرجس لن تراك أبداً، لا تهتم سوى بذاتها الشيطانية، ترغب برجل يقدّر غرورها المتعالي، ويعلي من شأنها، لن تشعر بما تشعر أنت، ولن تتعاطف معك، هي تعشق استغلال الآخرين، فلا تدهش إن أوهمتك بغرامها، هي تفعل ذلك فقط لتضخّم هوسها المريض بالعشق والغزل، تحرص كل الأوقات على تجميل صورتها بمختلف الطرق دون الالتفات إلى الخلف، لا ترى سوى نفسها ولا تسمع سوى صوتها، وفي النهاية ستقتل الحياة ممن يجاريها الحب، فابحث بعينيك عن أخرى تقدر لمعة الحبّ في عينيك.

تقابلت العينان دقيقة، ثم أشاحت وجهها وتركته دون وداع بعد أن وصلت هناء، سارت معها في الدروب الموحلة، هناء تثرثر عن يومها، ودارين تسكب الدموع الصامتة من عينيها.

كانت على حقّ في كلامها، قاسية كقسوته معها، جريئة كجرأة نرجس معه.

ظلّ يفكر بما قالته دارين، استقبل الزبائن مجدداً، وبين الفينة والأخرى ينظر إلى النافذة المغلقة، يعلم أنها ليست بالبيت، لكن هذه النافذة ملاذه من متاعب العمل. هي كجنة خضراء، متربعة على جبل قاسٍ، تحته بحيرة تعج بالتماسيح، الوصول إليها موت محتّم، والحصول عليها أعظم مكافأة. ضعيف لأجل حبها، قوي في مواجهة كل من يمسّها بسوء، فأر أمام كبريائها، ونمر على كل عدو خارج حدودها.

حين عادت نرجس منهكة من دروس الباليه، كان مشغولاً إلى حد أنه لم ينتبه إلى وقوفها أمام بيتها تتأمله، مع أنه انتظرها كثيراً، وحين ملّ الانتظار جاءته تمشي اعتزازاً وتكبراً، أرادت أن تنعم بنظرات حب يطلقها كيوبيد الحب، لكنه لم يشعر بها، امتعضت وخرجت إلى غرفتها تفتح نافذتها، فتنبه لقدومها، بُهت مالك من نور أضاء الدكان، رفع

رأسه عالياً، ابتسمت لكميّة الحب التي تلقتها من عينيه، سرّت بهذا الحبّ الكبير وأغلقت النافذة، فتحت حاسوبها لتكتب عن رجلٍ خُلق لها وأقسم أغلظ الأيمان ألا يكون لسواها، يشبه مالكاً بجماله، لكن هذا ينتمي إلى نسل النبلاء ومالك لا نسل له لينتمي إليه.

كتبت كثيراً إلى أن اشتكت يدها قسوة الأزرار تحت أناملها، أرادت أن ترقص كي ترتاح، ولكنها مجهدة عقلاً وجسداً، نامت تحتضن حلمها، ورجل الكلمة يحتضنها، ومالك في الأسفل يحتضن خيبته.

داعبتها شمس الصباح طالبة منها الاستيقاظ، وجدت نفسها ما تزال في ثياب العمل، استحمت بماء فاتر، ارتدت فستاناً أسود أبرز مفاتنها، رفعت شعرها، وربطته بشكل دائري، وضعت القليل من أحمر الشفاه، سيجعلها هذا الشكل محطّ إعجاب الشبان، رغبت في الرقص، الآن هي جاهزة.

وقفت في وضع استقامة، شدت ظهرها، رفعت رأسها إلى الأعلى، سمحت لذراعيها بالاسترخاء أمام جسدها، وألصقت كلتا قدميها ببعضهما، رفعت ذراعيها للأعلى ورقصت على أنغام بيتهوفن.

سمع مالك الموسيقى وأغمض عينيه، حلم بيوم يراقصها على أنغام موتسارت، لكنها انتهت من الرقص سريعاً، قطعت حلمه الشهي، حتى في أحلامه تقتله.

مسحت عرقها بمنديلها، رشّت القليل من العطر على ملابسها، حملت حقيبتها ونزلت، وجدته مازال ينظر إلى الأعلى مبتسماً لحلم لم يكتمل في ذهنه، اقتربت منه، فقطعت حبل أمنياته قائلة:

– ما الذي يجعلك تطيل النظر إلى نافذتي؟

نظر إليها وابتسم كالأبله:

– أخاف أن ترقصي يوماً وأنت مغمضة العينين، فتزل قدمك، حينها ستهبطين إلى حجري.

قهقهت بصوتٍ عالٍ وقالت:

- أنا نجمة يا مالك، والنجوم لا تزلّ قدمها.

همّت بالمغادرة، لكنه صرخ:

- أنا أعرف بيتهوفن وموتسارت وباخ.

التفتت إليه، فرأت لمعة الحب الحزين في عينيه، قالت بهدوء:

- احتفظ بمعلوماتك لنفسك، واستعن بمن علّمتك على نوائب الدهر، ولا تنظر إلى العلياء ثانية، فأين الثرى من الثريا.

غادرته وكأنها ما أهانته، أخرج لفافة التبغ من جيبه، أشعلها ونفخ نارها، كأنه ينفخ الهم من قلبه، ركل قطة صغيرة جائعة، صرخ في المتسول يأمره أن يكفّ عن الصراخ، ركل حصى صغيرة، ضرب باب السيارة بقوة، ركل الجدار، رمى السيجارة أرضاً ودعسها بغضب. سيهينها كما أهانته، فكر كثيراً، دار حول بيتها دورات عدة، فكر في قتلها، حرقها، وأدها، خنقها، لم يشفع له حبه، سينتقم لكرامته على عتبة دارها، يكفيه

ما لقي من إهانات وخذلان، يجب أن يثأر لنفسه، سيكون كما أرادت ورغبت، ولن يكون لها حينها.

نظر إلى الدكان المهترئ، هذا الدكان يعيق أحلامه ويقف أمام طموحاته، أول مرة يرى عمله غير جدير به، غير قادر على تلبية رغباته، أغلق الدكان، وأعطى المفتاح للمتسول ليقدّمها إلى هشام، قبل رأس المتسول طالباً منه السماح، نظر نظرة وداع أخيرة إلى المكان، إلى باب دارها، إلى نافذتها.

مشى في الدروب المظلمة المقفرة البائسة، وصل إلى بيته، استحم من درن السيارات وشحومها، استحم بعبراته وخيباته، أودع ملابس العمل في كيس ولفّه بإحكام ورماه أمام بيته، هو ليس بجاهل كما تعتقد، الفرق بينهما واضح، لم يدرس في مدرستها، ولم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب.

خرج من البيت دون وداع والدته وأخته، اكتفى بكتابة رسالة قصيرة، خرج إلى الحي الضيّق بأزقته المظلمة، ثم إلى الشوارع الواسعة، وبدأت رحلته بعيداً عن الحي، كانت صورة نرجس تلاحقه أينما ذهب، تشجعه على إكمال المسير إلى أن يصل إلى ما يطمح إليه.

هل الحياة ستقف عائقاً أمام تحقيق طموحه فتصفعه بخيبات جمّة؟ أم ستمنحه ما يريد وتصنع له قدراً يليق بأحلامه؟ أقسم يميناً ألا يرجع إلى مكان أهدرت فيه كرامته، لن يعود قبل أن يصل إلى مبتغاه، وإن تأخر الأمر كثيراً فسينتظر ولن يملّ الانتظار. ربما سيراقبها من بعد، فالمراقبة هي الحب ولكن بمنظور مختلف، هو يدرك أنها لن تكون له الآن، ربما ذات يوم يصبح جديراً بها.

الجزء الثاني

اختفى مالك من الحي، لم يبحث عنه أحد، لأنه أراد ذلك، رغب أن يختفي ولا يبحث عنه إنسان، طلب من هشام في رسالته ألا يسأل عنه ولا يتشمم أخباره، ترك الحي كله خلفه ومضت الأيام في غيابه قصيرة روتينية، طويلة على والدته وأخته ودارين.

أكملت نرجس حياتها دون مالك، كانت حياتها روتينية مملة، أخذ معه كل جميل، ولم تعِ ذلك وتفهمه إلا بعد انتهاء الحكاية وفوات الأوان. بعد أن أوت إلى غرفتها، فتحت نافذتها، فوجدت الحي كئيباً من دونه، لا حياة فيه، لم تجد الحب بين سكانه، وكان لها حب تحلم به كل فتاة

وهي من أبعدته عن ساحتها. الحي غارق في الظلام، يستمدّ نوره من ضوء غرفتها، أغلقت النافذة ووقفت أمام مرآتها، رأت كآبة في عينيها لم تعهدها من قبل، كأن مالكاً إله يخاطب عينيها النرجسيتين، رحل آخذاً معه جمال الحي وسعادته.

جلست خلف حاسوبها تكتب عن رجل الكلمة، في كل كلمة تصف مالكاً، وفي كلّ حرف يتراءى لها شبحه واقفاً أمامها يهزأ بكبريائها، كانت تريد أن تصل إليه عبر رجل الكلمة، عشقت حروفها ونسيت أن تعشق صاحب الكلمة، الرجل الواقعي الذي لم يستطع صبراً أمام غطرستها، ففر هارباً إلى مكان بعيد، وترك الساحة فارغة إلا لرجل من أحرف سوداء.

عادت وحيدة كما بدأت حياتها في هذا الحي وحيدة، فدارين تقاعست عن المجيء إليها، متهمة إياها بأنها السبب في اختفاء مالك، هل مالك رجل الكلمة؟ تغضّ نرجس الطرف عن ذلك، فليس جديراً بها ولا يليق

بنرجسيتها، سيبقى حبيباً لها باسم آخر، وحياة خيالية، ستخلقه من أحرف سوداء، فيرسم لها طريق الحب، ويعبّده كرمى لعينيها، هذا الطريق الذي عجزت أن تمشيه واقعاً، ستمشيه على شاشة الحاسوب بقناعة تتنفس عشقاً، تركت الحاسوب ودفنت رأسها كما النعامة، حزنت على أشياء كثيرة خسرتها، اعتراها شعور مفاجئ بالألم لغيابه، قلقت على مصيرها، خافت أن تعيش وهم انتظاره، كل يوم يصبح الانتظار عندها عادة سيئة تخشى الإدمان عليها.

بدأ التشاؤم يخيط حولها خيوطه ليقيّدها بأحزان وآلام طويلة الأمد، أغلقت الحاسوب، فشعورها بأنها زائدة على الحياة يتزايد، تخشى أن تكمل حياتها دون هدف، وأحياناً تشعر أن المجتمع كله في أمس الحاجة لرقصها وعزفها. سحقاً لمزاجها المتقلب، كلما زاد شعورها بغياب هدف للحياة زاد افتقارهاإلى الواقع، والهروب من الكتابة إلى الرقص، حتى تتعب وتتورم قدماها، فتهرع إلى العزف، تعزف على البيانو،

تؤلمها أصابعها، وبعدها ترتمي على سريرها، تنام سريعاً، فيصمت ضجيج عقلها.

مرّ شهر، دون أن يظهر مالك، أكملت الحياة بلا طعم ولا لون، تفتقر حياتها الجديدة إلى الحب والهناء.

جاءتها دارين في عصر يوم الجمعة، جلست وإياها في الصالة، قدمت لها كوباً من الشاي، وضعته بهدوء أمامها على الطاولة وقالت:

- أتعود الأمور إلى مكانها الصحيح؟
- ستعود للجميع إلاك يا دارين.
- قد أبدو لك أنني منهارة من الخارج، ولكني من الداخل قوية، في داخلي برود شديد لم أشعر به من قبل.
- هذا تقولينه لأخرى لا تعرف سرّك.
- صدقيني يا نرجس، لم أكن أعلم أنني سأكون قوية في غيابه، لقد خسرتُ مالكتً ولكني كسبتُ راحتي، لم أعد أفكّر بقسوته، مرّت

علي أيام أتعبتني، وهو بارد لم يشعر بي، لم أعد أرغب في أي شيء.

- تقصدين أن مشاعرك قد تبلّدت.
- ربما، لم يرشدني أحدهم إلى الطريق الصحيح، تعلمتُ كلّ شيء بنفسي، تعثرتُ ووقعتُ وأسندتُ نفسي، كنتُ حين أتوقف عن اللحاق به أشعر بقلبي يتسلم زمام الركض إليه، الآن انتهى فصلي الدراسي، سأحاول جاهدة نسيانه، وأتفوق في السنة القادمة، ولن أعير أحدهم قلبي، فهو يخصّني وحدي.
- أحسنتِ يا دارين، أصبحت ناضجة.

نظرت إليها وتلاقت العينان، أخفضت دارين عينيها وقالت:

- كان يصبو إليكِ، ويهفو قلبي إليه، أمتلئ بالشوق لك وحدك، نظراته كانت تحمل الكثير من الودّ والحبّ لك.

وقفت نرجس واتجهت إلى المرآة، أسدلت شعرها فتساقط كالشلال على كتفيها، برق الحب في عينيها لجمال خصّها الله به، ثم قالت دون أن تلتفت إلى دارين:

- أتدرين بأنني أغازل نفسي في الصباح وعند المساء، أنا فاتنة بنفسي ولا أنتظر من غيري أن يفتن بي.

ثمّ استدارت إلى دارين وأكملت:

- لا يمكن إخضاعي بسهولة للحبّ الغبي الذي تتفوهين به، كلما نظرتُ إلى المرآة أقع في غرام ملامحي، ليس غروراً كما يتحدث الجميع، بل ثقة عالية في النفس، لا يمكن زحزحتها وكسرها، أنا أعرف قيمة نفسي أكثر من العامة.

ثم عادت إلى مكانها وأكملت:

- من أفلت يدي هو الخاسر الوحيد، أنا أنثى لا تتكرر، ليس عندي أربعون شبيهاً، لأنني حالة مميزة يصعب تكرارها.

صمتت دارين عن الكلام، استأذنت وغادرت، لعنت حظها ألف مرة، وحظ نرجس مئة مرة، لمَ لم يعجب مالك بها؟ كانت ستزرع له وروداً ثم تدعوه أن يخطو عليها، فمثله لا يخطو إلا على الورد، ما الذي دعاه للإعجاب بنرجس؟

مشت في الأزقة المتعرّجة والدموع تسبقها، حاولت ألا تشمّت نرجس بها، فادعت القوة، لكنها الآن وحدها، تمشي في دروب مشاها مالك وهو يضحك ويتألم، ويشعر بحب غير حبها، كم تنهيدة تكفيها لتندب الحب وترثيه! لم يخذلها رحيله قدر ما خذلها هروبه، كان أقل بكثير من حجم محبتها، كان الهروب باهتاً لا يستحقها، وقفت أمام بيته تتلو صلوات الحب الأخيرة، وتشيّع حلماً قطعه بمنشار الواقع، لم تفعل شيئاً لأن مخزونها من المحاولات نفد، عاشت مراهقتها خائفة من وداع يحصل بحق ويصبح محبوبها لغيرها، لم تكن تخشى نرجس، لأنها تعرف أنها لن ترتضي به زوجاً، كانت تخاف أن يهرب من نرجس إلى أخرى تكبرها فتعطيه من الحبّ أطناناً.

طرقت باب بيته، ظننت من فرط الهوى أنه سيفتح فيطلّ منه ويكذب أفوله في ليلة ظلماء غاب قمرها. فُتح الباب وأطلّت هناء باسمة، قبّلت صديقتها وأدخلتها غرفتها مرحبة بها، جلستا على السرير، تتكلمان وتضحكان، انتبهت هناء إلى حزن صديقتها، صمتت قليلاً، ثم قالت:

- انسيه يا دارين، انتبهي إلى ذاتك جيداً.
- هل تفضحني ثرثرة عيني الممتلئة بغرامه؟ أحاول عبثاً إخفاء انكساري وهزائمي.
- اردمي الأيام التي ساقتك إلى هواه.
- يوجعني شعور الفقد كل ليلة.
- تذكري قسوته عليك، فربما تنفرين منه.
- لا أتذكر سوى وهم الحب الذي غمرته به، الذكريات حرب قاسية تشنّها علينا بعد الغياب.
- تجاوزيه إذن.
- ليتني أفعل، ليتني قويّة لأجابه الوداع ولا أبكي.

ودعتها هناء على الباب، ثم جلست على عتبة الدار تبكي أخاها، كلهم افتقدوا عشرته، لا دارين فحسب، كلهم اشتاقوا إلى سماع كلماته الحانية، مازالت الرسالة تحت وسادة والدته، تشمها كل ليلة قبل النوم، تقرأها، تدعو له، تبكي. وجدت هناء على عتبة الدار تبكي الفقد، اقتربت منها، جلست جوارها، عانقتها، التحمت الدموع، انسكبت حباً، اشتياقاً وحنيناً، الوالدة تبكي ابنها، وهناء تبكي أخاها وحزن رفيقتها.

اقتربت دارين من دكان هشام، وجدته منكباً على عمله، طالبها المتسول بقطعة نقدية، لم تعره اهتماماً، كانت تريد أن تسأل هشاماً عنه، لعله يعرف له عنواناً، لكنها خشيت افتضاح أمرها، ثم تتهم بالحبّ المحرم، ماذا سيقول عنها هشام؟ وأهالي الحي؟ وما تسويغاتها لوالدها؟ عادت إلى البيت تستمتع إلى ثرثرة رنا، وهي صامتة والقلب يتألم، لم ينتبه أحدهم إلى دموع قلبها، ليتها تستطيع أن تعيش حياتها بلا ألم في عالم لطيف، لا قلق فيه ولا خوف، لا تؤذي أحد ولا يؤذيها أحد، لكن الحياة لم تكن عادلة، منحتها ألماً مضاعفاً دون مقابل، كلما خلت إلى

نفسها تفتقده، وتعلم علم اليقين أنه لو عاد فلن يعود إليها، تنام بضيق الصدر، وتستيقظ بدمعة على الخد، لم تعد تجالس والديها، فالحديث أغلبه على غياب مالك عن الحي، تقضي عطلتها الصيفية ما بين تعداد ذكرياتها القليلة معه، وبيت هناء، وبين المشي في الطرقات الخالية إلا من أنفاسه.

اقترب تيم الله من هشام يسأل عن أحوال مالك، لم يعد يلمح له أثراً، حوقل هشام واستغفر خالقه، ثم أخبره بما حصل قبل شهرين من الآن. حوقل الشيخ تيم الله، ثم قال:

- أخبرته مراراً وتكراراً بأن طريق الحلال بيّن وطريق الحرام بيّن، ثم ما يذهب لغيره يتركه لغيره، لم كل هذا الإصرار على المشي في الطريق المغلق؟
- يا شيخي مشاعر مالك هشّة، لا يطيق الانكسار ولم يستطع الانتصار.
- لأنه تعلّق بما ليس له، تعلّق بالمخلوق بدل الخالق.
- اجلس يا شيخي ريثما أصنع لك إبريقاً من الشاي.

دخل هشام إلى الدكان، وهناك نظر تيم الله لأول مرة إلى النافذة المحرّمة.

مرّت الأيام وحان وقت العودة إلى الدراسة، نرجس استطاعت أن تخرّج دفعة موهوبة من طالبات المعهد، إن كان في الرقص أو الباليه. شاركتهن الرقص والغناء والعزف. ودارين مازالت في الثاني الثانوي، لم يعد لها سوى سنتين ثم تصبح في الجامعة، وبذلك تكون قد كبرت، ولم تعد طفلة صغيرة.

خمسة شهور مرّت على رسالة مالك الأخيرة، ونرجس تكتب عن رجل الكلمة، فجعلها تغرم به، تخبره كل يوم بما يجري لها، تشاركه يومياتها بتفاصيلها المملة، تخبره عن عالم المرايا الساحر، وفي عينيها يطل جمال مالك، وشخصيته التي رسمتها حبّاً وتفننت بها عشقاً.

ومالك لا أثر له إطلاقاً، فدفعها إلى أن تعود إلى عنجهيتها وحياتها الرتيبة، تقابل الغريب، تقصّ عليه حكاياتها، تختلق معظمها ليتوّجها بطلة صغيرة، يمنحها ظرفاً من المال، فتنفق على حياتها بسخاء. تحدّث

دارين عن الفن والرقص، ترمق الشحاذ بنظرات احتقار، تنير كل غرفها لتفهم الحي كله أنها ثرية بالكهرباء، فيما بيوتهم غارقة في الظلام.

فتحت نافذتها لعلّ الهواء يريح أعصابها، أطلت بنظرها إلى الأسفل، فرأت جمالاً يضاهي جمالها، يفوق جمال مالك، لا ليس بشراً وإنما ملاك هبط على الأرض في صورة بشر، كان في الأسفل منهمكاً في الحديث مع هشام. نظرت إلى بياض بشرته، لحيته الكثيفة، عيناه كعيني المها، أنفه دائري صغير، قامته طويلة، ظلّت تنظر إلى قمرها في الأسفل، أول مرة ترى هذا المخلوق، من أي الأحياء جاء؟ سيارته باهظة الثمن، يا إلهي كم حلمت وتمنت في دقائق معدودة! لن تضيّع هذا الجمال من يدها، فهي خُلقت للجمال والجمال خُلق لها، حاولت جذب انتباهه بضرب النافذة بمنفضة الغبار، نظر إليها هو وهشام، قطبت حاجبيها، لا تريد نظرات هشام، بل نظرات الأمير الوسيم، ابتسم لها وراح يكمل حديثه مع هشام، أنهيا كلامهما، دخل هشام إلى الدكان، نظر إليها تيم الله، ابتسم، ركب سيارته وغادر، ظلت تتابعه بنظراتها،

حتى ابتلع الشارع الواسع السيارة. ما أجمل عباءته البيضاء! وقعت نرجس في غرام ملامحه وأمواله، ولم تقع في غرامه، ستضرب عصفورين بحجرٍ واحد _مال وجمال_ ستوقعه في شرك حبها.

وقفت أمام المرآة وتعرّت، لقد نضجت وأصبحت مكتملة الأنوثة، رقصت عارية نصف ساعة من الزمن، وبعدها ارتدت منامتها وقفزت على السرير، بدأت تثرثر لرجل الكلمة عن الدخيل الجديد، عن سارق لبّ عقلها.

بدأت تتعمّد كل يوم ترك النافذة مفتوحة، غرقت في الانتظار، مرّت الأيام، تبادلت فيها النظرات معه، يبتسم وتضحك، كل يوم يقضيانه هكذا، بدأ يأتي من أجلها لا من أجل هشام، يغافل الجميع ويتأمل الحسناء من عليائها، وكلما جاء هشام بالشاي يتجاهلها ويكملان حديثهما عن اختفاء مالك، لم يخش النظر إليها، لأنها تستحق أن يتأملها كل عابر سبيل، فهو لم يخض معركة إلا وانتصر فيها واستحق

شرف الفوز، إلى الآن لم تعرف اسمه، فجماله غيّب عن ذهنها الكثير من الأسئلة الهامة.

في آخر الليل تلجأ إلى رجل الكلمة لتضيف إليه صفات الزائر الجديد، تعبث بشخصيته كما تريد، وفي الصباح تتأمله ضاحكة وهو مازال يبتسم لها في غفلة عن الجميع، والمتسول يناشده أن يمدّه بقطعة نقدية ترضي جوعه.

مرّت الأيام، تعبت نرجس من الانتظار، صار انتظاره عادة لها، كلّ صباح تتأمله وتنتظر إشارة منه كي تهبط إليه، لكنه عنيد، يحمل كبرياء فاق كبرياءها، وغروراً فاق غرورها، نظر إلى جمالها ولم ينظر إلى قلبها وروحها، فُتن ببياض بشرتها، والليل الساكن في عتمة عينيها.

توالت الأسابيع والشهور، توالت النظرات والبسمات، لم تشبع العيون من الجمال، إن نظر نظرة نظرت نظرتين، إن ابتسم بادلته ضحكة مثيرة، كان الانتظار يفتك بعقارب ساعتها، هي تمقت الانتظار، تريده على

عجل كي تباهي به صديقاتها، وتثأر من بيان ومالك، ستحصل على أقدرهن ثراء وجمالاً، باتت النافذة مفتوحة ليل نهار، وتيم الله في الأسفل يطالعها بنظرات دافئة مرّة واحدة في اليوم دون توقيت محدد، كي لا ينتبه أهل الحي لهما.

مرّت الشهور ما بين ابتسامة ونظرة، ثم نظرة وابتسامة، إما يسبقها أو تسبقه، وأخيراً تشجّع وأرسل إليها رسالة مع المتسوّل، أشار إليها أن تمرّ على المتسوّل، هو يدرك أن المتسول عاجزٌ عن التواصل مع الآخرين، ولن يفضح أمرهما، فيما نزلت من برجها العاجي، اقتربت من المتسول، أول مرّة تمنحه نقوداً، سلبت منه الرسالة الصفراء مع وردة نرجس صغيرة وانطلقت إلى بيتها دون أن تشكره.

كان يطلب منها موعداً ليلياً سرياً، بعيداً عن أهل الحي وتطفلاتهم. هرعت إلى غرفتها، شمّت الوردة، احتضنت الرسالة، قرأتها مرّات عدة، سينتظرها بعيداً عن الحي تحت شجرة كينا ضخمة، أمام منازل مهدمة

بسبب الحرب. جهزت ثوبها الأصفر القصير، فتحت حاسوبها وكتبت الكثير عن غرام أتاها في ليلٍ بهيم. ارتدت الثوب، تزينت، رشت من العطر النرجسي، لبست الكعب العالي، قبّلت ذاتها في المرآة، حملت حقيبتها وغادرت إلى موعدٍ جديد هي بطلته.

نزلت بهدوء، كأنها آلهة هبطت من السماء لترعى شعبها، خرجت من البيت، لم تحتقر المتسول، فهو طريقها إلى الحب، على العكس صارت تمنحه بعض النقود، مشت رافعة رأسها تفكر في رجل الكلمة الجديد.

خرجت من الحي، وجدته تحت شجرة الكينا، يرتدي قميصاً من الكتان، وبنطالاً من الجينز، ضحكت بعفوية حين صافحها، فتح لها باب السيارة، وطارت إلى جبل قاسيون، صوّر لها الحب باكتمال كما حلمت به، وشهدت دمشق على حبهما، لم يأسرها في مقهى بل حررها من كل المقاهي والمطاعم، طلب منها أن تحتشم في لباسها لأنها برفقة شيخ الحي، سعدت به كما سعد بها، ورحبت بفكرة الحب معه، ضحكت،

غنت، طارت في أحلامها، حلقت إلى الغيوم، لم تخف ارتطامها المفاجئ بالأرض.

أوصلها إلى الحي بعد بوحه بكلمات الغزل، هذا هو الحب الحقيقي، لا حب مالك الذي لا يصلح لها.

لم تعد تراقب بيان ونازك، لم تعد تهتم برقصهما أمامها أو بعدمه، أصبحت تتجنب لقاءهما. استغرب بيان لا مبالاتها، فهي في العادة لا تترك ساحة المعركة لغيرها، ولا تخرج من حربٍ خاسرة، هل أيقنت بخسارتها؟ كانت نازك خائفة أن تفاجئهما بأمرٍ جلل، فهي لا تترك أمراً إلا وقد أحرزت فيه انتصاراً كبيراً، يضاف إلى سجلّ انتصاراتها.

تقدم بيان ليسجّل أهدافاً في مرمى نازك، إذ تقدّم لخطبتها علناً، وأصبحت أميرته بعقد رسمي، ذاع الخبر سريعاً في المعهد، وشهد الجميع الانتصار الكبير ضد نرجس، وهي مختفية لا حس لها ولا خبر، كأنّ الأرض انشقّت وابتلعتها، لا تريد العودة إليهم إلا ويدها في يد تيم،

لكنه يرفض الأضواء والشهرة، أحب المكوث في الظلام كما الخفافيش، ما إن يسدل الليل ستاره حتى يبدأ رحلة الغرام، يشقّ بسيارته شوارع الشام العريضة بغزلٍ وهيام يجعلها راضية سعيدة بما يقدّمه لأجلها.

هامت بتيم الله أكثر من بيان ورجل الكلمة، وحولت شخصية هذا الأخير لصالح بطلها الموقّر، كل ليلة ينتظرها تحت شجرة الكينا، تصل إليه كأميرة خارجة من عرشها إلى شعبها، احتشمت في ملابسها كما أراد، إذ ظنت عالمه أفضل من عالم غيره، ذهب بها إلى المطاعم والمقاهي الفخمة، أغرقها بالهدايا الباهظة من مصوغات ذهبية، وعطورات وساعات باهظة، ومشغولات يدوية تذكارية، جميعها تليق بمحبوبته، يريد الاستفادة من هذا الجمال بمختلف الطرق الممكنة، أمسك يدها وقبلها، وقال بصوت مليء بالغرام:

– أتدرين أنك مختلفة عن كلّ نساء الأرض.

– وأنا أشعر بأنك مختلف عمن سبقوك.

- سأخوض معكِ علاقة حارة مفعمة بالغزل والحب.

ابتسمت نرجس، سحبت يدها من يده، أشاحت وجهها إلى الجهة الأخرى، قلبها يطرب فرحاً، فأكمل:

- أشتهي عناقك يا نرجس.

نظرت إليه بدهشة قائلة:

- لا يمكنك الاقتراب أكثر من ذلك.
- لكن قلبي يشعر باليتم في غيابك، وليس بعد اليتم ألم، وليس بعد غيابك غياب، في كل ليلة تبتلعك ظلمة الحي فأشعر بها تفتك بي، لا أحبذ الانتظار على عتبة حي مظلم مقفر.
- في كلّ ليلة حين أعود إلى نفسي أكتب لك كلمات الوجد، فأجد الحروف قد هربت مني، لتنتحب في الزاوية اشتياقاً وحنيناً، مخذولة أحرفي ومصابة بألم الفقد، تشعر أمامي أنها بلا قيمة، عاجزة عن تقديم جميع أحرف الصبابة.

- إذن ما رأيكِ في مكان بعيد عن الأعين المتربصة بنا، لا يرانا أحد، ونعيش الحب كما يحلو لنا.
- لا أستطيع أن أمنحك وعداً.

نزلت من السيارة مسرعة، حتى نسيت أن تغلق بابها، خافت على نفسها من الانغماس في حكاية ترعبها، وتسجل النهاية ضدها.

وصلت إلى بيتها، وجدت دارين تطرق الباب، حمدت ربها أنها لم تتأخر هذه الليلة، كانت ستعلق بلسان هذه الصغيرة، شعرت الآن أنها مذنبة، فنظرات أهل الحي تتهمها بما تخفيه عنهم، فتحت الباب، دخلت وخلفها دارين، تنظر إلى ارتباكها، وهي تمسح عرقها بمنديلها، لم تكن دارين غبية، فهمت نصف الحكاية فحسب. سألت ببراءة:

- هل هناك معجب جديد؟

صرخت نرجس بعفوية:

- كلا.

- إذن لم اختفيتِ؟ لم أعد أراكِ كما في السابق.
- منشغلة دوماً، ما بين الرقص والعزف، لا وقت عندي أهدره معك.
- أنا أزورك لأطمئن عليك فحسب.
- أنت تزورين مكانة مالك في قلبي، ابحثي عنه خارج هذا المكان، ربما تعثرين عليه ويصبح لكِ عاشقاً.
- ومن أخبرك أنني مازلتُ في حبّه تائهة، لقد نسيته منذ أن أفل كنجم صغير لم يضيء يومي من قبل.

ضحكت نرجس وقالت:

- لستُ بهذا الغباء، عيناك تبرقان حين تسألين عنه، ألا تدرين أن الفم يطبق على قول الحقيقة فتفضحه العينان، العيون بريئة لا تعرف الكذب كما اللسان والقلب.
- ربما، هل يضيرك غرامي به؟
- طبعاً لا، أنتما تشبهان بعضكما، أنتما الاثنان خاويان.

- أنا مخطئة لأنني أتيتُ لزيارتك.

- ومن قال لك إنني أرحب بهذه الزيارة.

صفقت الباب خلفها بغضب بعد أن خرجت دارين منه غاضبة، تعرف دارين أنها لا تحبّ نرجس ولا تقربها قرب الصديقة، تزورها لتتشمم أخبار مالك فحسب، نظرت إلى دكان هشام، تنهدت على غياب بطل حكايتها، مع أن مالكاً لم يكن لها أصلاً، لم يسأل عنها يوماً، هرب من الحي ليثأر لكرامته ويجعل نفسه عريساً لأخرى معجب بها، ودارين مشغولة به، السؤال عنه من المحرّمات، تخشى أن تكون تلك قد وقعت في غرامه، ربما تخفي عنها هذا السر.

بدأت تغير عليه من نرجس، كأنها تطارحه الحبّ والغرام، ويحقّ لها الغيرة، ستبقى في نظره صفراً على الشمال، بلا قيمة يراها. ونرجس بعيدة كل البعد عما يدور، مشغولة بشيخها الجليل، تحاول أن تعثر على السعادة معه فحسب، ترضي أنوثتها، وتيم الله مشغول بجعل

نرجس أميرة ترضي غروره ويرضي غرورها. تريد منه أن يتفوق على من سبقوه، وهو يريدها أن ترسم له درب السعادة.

وقفا معاً على جبل قاسيون وتحتهما دمشق تستمع حديثهما، قبل يدها، ابتسم لها كثيراً، ثم قال:

- لم أعرف السعادة قبل معرفتي إياك، لم يعد هذا الفؤاد ينبض إلا حين يراك، كلماتي عاجزة عن الخروج حين تمرّين بجواري، غرامي بك ولك سيكون ولأجل عينيك قد خُلق.
- وأنا أراك في كل الوجوه العابرة، رغم أنك لا تشبه أحداً.

كانت في حاجة إليه لترضي أنوثتها وتستمتع بهداياه، تحزن أحياناً من الخوف لفقدانه، لكنها لا تبكي دمعتها الوحيدة التي غادرتها في الآونة الأخيرة، لا تريد الابتعاد، فطيفه يحتوي أناتها، يحتوي ضعفها ويفتت صلابتها، يشعرها دوماً أنها شيء عظيم، تستحق أن يغمرها بالحب

والدلال، وهي في حاجة إلى الوصول لأعلى مراتب الحب، وها قد أوصلها إلى ما تريد.

لم تعد تلتقي الغريب، صار يودع المال في حسابها البنكي، اكتفت بتيم الله عن كل ما سواه.

عادت إلى البيت، خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، صعدت راكضة إلى غرفتها، اليوم هي في قمة السعادة، لن تفتح الباب لدارين، ستعكّر مزاجها بأسئلة لا تودّ الإجابة عنها، لن تضيّع فرحتها بالبحث معها عن مالك. ستعزف اليوم لحناً خُلق من وتر شفاف، يليق بغرام شفّاف خبّأته عن جميع البشر، كما خبّأها عن الكل دون استثناء، لن يصدقها أحد إن أخبرتهم أن شيخاً كتيم الله مغرم بها. عزفت كثيراً، رقصت أمام مراياها، رمت نفسها على السرير تتخيل ذاتها عروساً له.

أحبت نفسها معه أكثر من أي أحد آخر، أحبت كلام الغزل الذي يقطّر كالعسل من لسانه، عشقته كثيراً ورقصت على أوتار حبّه ساعات كثيرة

دون ملل أو كلال، اعتقدت أنه العوض الجميل، ولا سيما أنها قادرة على سلب لبّ أي رجل فقير أو غني، تقي أو فاسق، جميل أو قبيح.

الآن حياتها فارغة إلا من تيم الله، غارقة في جماله، الشيخ الورع الذي ما فتئ ينهي مالكاً عن الوقوع في الحبّ المحرّم، صار يجاري مالك اللعبة ذاتها، فانتصر عليه وأحرز تقدّماً بسرقتها من الجميع، تحت ستار ليل مدلهم دون رقيب عليهما، خلف غابة السكون، تحت شعاع القمر الفضي وبريق النجوم. حكى لها عن وله أصابه في مقتل، وأخبرها أن لا حياة دونها، سيأخذها ويخبئها عن عالم هي أرقى منه وهو أدنى منها. همس لها في جلسة سمر تحت شعاع القمر:

- مرّ على حكايتنا عام يا نرجس.

- مرّت الأيام بسرعة البرق.

- من حقي أن أعبّر لك عن غرامي بطريقة أخرى.

- كيف ذلك؟

- أشعر أنك زوجتي، وقسماً يا نرجس لن أتركك، فتعالي إلى بيت يجمعنا، أراقصك وتراقصينني، يستمع الليل إلى حكاية حب تصرخ بها أفئدتنا.

لم تقضم نرجس تفاحة الوعود، لأن السموم تسري بها، صاحت:

- أنا أكره البيوت، فهي تأسرني، ولاسيما إن كانت خالية من المرايا، اعتبرها بلا حياة.

- وماذا لو أعددت لك ما ترغبين.

ابتسمت وسكتت، تدرك أن ما يفعله قليل في حق أنوثتها، وإن أرادها بحق وجب عليه تجاوز كل التحديات والقفز بمهارة فوق الحواجز، هي تستحق أن يركع الرجل لأجلها.

سارت في الحي المظلم، كأنها بعثت من جديد، رفعت رأسها إلى الأعلى، كأن ما حولها أوراق شجرة صفراء سقطت بفعل الرياح، ووحدها

ابنة الشجرة الخضراء المدللة التي مهما تلاعبت بها الفصول وتمايلت بفعل الرياح فستبقى تغني للريح، والريح تعزف لها لحن حياة مبهجة.

عام كامل مرّ على حكايتهما، تفوقت دارين في دراستها، وأصبحت في المرحلة الثانوية الأخيرة، تناست مالكاً لتجتهد في دراستها ويتسنى لها التفوق، تمنت أن يراها قد كبرت إن جاءها يوماً وأصبحت تليق بعظمة حبه. بدأت دراستها بجد وقليلاً ما كانت تقابل نرجس، لم تعد تزورها في البيت بل تراها عائدة من المدرسة، وهناء ووالدتها تعودتا غياب مالك، وقلما تتحادث هناء ودارين عن غيابه والشوق إليه، كانت الأيام تضحك لنرجس، سريعة عليها، بطيئة على من سواها، لمن يعبث الانتظار بهم.

وتيم الله مازال يلحّ على نرجس أن تمنحه وعداً بزيارته ويقدّم لها كل ليلة وعوداً جديدة ألا يمسّها بسوء، ويحلف أغلظ الأيمان ألا يقربها، مازال يتودد إليها بالهدايا تارة وبالغزل الفصيح تارة أخرى، وهي تائهة في متاهات الحيرة، أحياناً تغرقه بالحب الصريح، وأحياناً تتملّقه تملقاً

وتهرب منه إلى ظلمة الحي، لا وصل إليها ولا وصلت إليه، ظلّت على هذه الحال ولم تمنحه اليسير من جسدها، مازال عنيداً، يطلب منها أن تمنحه نفسها راضية مرضيّة.

عام كامل مرّ ولم ترَ لينا نرجس، لأن الأخيرة تركت المعهد وانصرفت إلى غيره تعطي دروساً لمن هم أصغر من لينا سناً. ظلّت تسأل والدتها عنها وتقف لتراقب مالكاً وهو يدرس في غرفته الصغيرة، تطل عليه في الصباح وتجالسه كل مساء، تحدّثه حديثاً لا يخصّ نرجس بل تحاوره في العلم والمعرفة، ليتفوّق على الجميع.

ثم تجلس معه على عتبة غرفته، فتبدأ بالحديث عن نرجس، طفولتها في الميتم، في بيتهم، تحادثه بكل ما يرغب فيه، فتثير شفقته على نرجس، وتثير حنقه على سهام. قالت له بعد انتهائها من الكلام:

– عد إليها يا مالك، فهي تائهة بلا عنوان.

– ألم تسمعي أنها تعيش قصص الغرام.

– من المحال أن يختارها شريكة حياة، طبعاً يلهو بها ويلعب.

– لا أستطيع أن أوقف عبث نرجس، وأنت تعلمين ذلك.

- أمي جلبتك إلى هنا لتجعلك جديراً بها، كانت دائماً تخبرني بأنه لا أحد يصون نرجس ويحفظ كرامتها سواك.
- كيف تصل أخبار نرجس إليكما؟
- لنا في الحي رقيب عليها، يشتمّ أخبارها ويأتينا بكل جديد، حتى داخل غرفتها نعرف ما يحدث.
- أإلى هذه الدرجة أنتم قادرون على الوصول إليها؟!
- وأكثر من ذلك.
- صحوة الضمير إذن.
- مع ذلك هي لن تشفع، وذنب والدتي سيبقى كالندبة لا يمحى، مهما حاولت وأنفقت فستبقى تذكرها بذنبها القديم.

تركته وغادرت إلى غرفتها، تلمّست قلبها، تناولت حبة من دوائها، جلست تتنفس بصعوبة حتى عاد تنفّسها طبيعياً. لن تدع نفسها تغرم به، تعرف مدى عشقه نرجس، لن يرى في الوجود غيرها.

تأففت نرجس حين رأت دارين على الباب، لوت شفتيها امتعاضاً، ألقت التحية على دارين، فأجابتها بقلب بارد، وأدخلتها إلى الداخل، الفضول يأكل دارين، تريد أن تعرف عن نرجس الكثير وعن مالك أكثر، تريد الوصول إليه قبل أن تحنّ نرجس إليه فتطالب به، لا تريده لها ولا يريد إلاها. جلست على الأريكة وقالت:

- لم أرك منذ فترة، فما أخرك عني؟
- ماذا تريدين مني؟
- أأنتِ عاشقة؟

صاحت بغضب:

- ما هذا الهراء؟

تأملتها دارين بشفقة وقالت:

- أردت الاطمئنان عليك فحسب.

وقفت نرجس أمام المرآة، لعبت بشعرها الأسود الطويل وقالت:

- عني؟ أم عن حبيب القلب.

وقفت دارين خلفها تتأمل ملامحها، وقالت ببرود:

- عن كلتيكما.

- إذا كنتِ مغرمة به، فلمَ تركته يرحل؟

- لأنه مغرم بغيري.

- وأنا لا أحبه.

- لأنك أنانية.

قالتها بدموع غشيت مقلتيها، قطبت نرجس ما بين حاجبيها، ونظرت إليها صامتة، تنتظر أن تكمل دارين عتابها، فأردفت الأخيرة بصوت متقطّع:

- تعدّين نفسك ذات أهمية قصوى في حياة من حولك، تظنين أنه لا يمكن الاستغناء عنك، كأنك مصدر الضوء لهم، واثقة من نفسك حد التمرد، ومعجبة بها حد التضخم، تتفننين في اللعب بمشاعر

الآخرين، تهوين اللعب بالأفئدة وسلب العقول، كل هذا وأنت تمرحين وتضحكين.

ثم اختنقت بدموعها، فسكتت.

- وماذا بعد، هيا أطربيني، أنا أكره النقد يا دارين، ولاسيما إن أتاني من فتاة غبية مثلك، مصابة بحب وهمي.

صرخت دارين:

- أكرهك يا نرجس، أكرهك.

هربت بسرعة، وصفقت الباب خلفها، تركت نرجس وحدها تداعب شعرها الأسود، ثم همست لنفسها ضاحكة: "وما ضرّني إن كرهتني أو أحبتني، هل سيتغير العالم؟" أدارت وجهها إلى المرآة وقالت: "أخبريني يا نرجس، هل سيتغير العالم". صعدت إلى غرفتها وخلعت ثيابها، نظرت إلى جسدها، هل يقدر تيم الله على إشباع غريزتها، لبست ثوب منامتها

وارتمت على السرير، لن تكتب اليوم أي كلمة، فقط ستنام دون أن ترقص وتعزف.

مشت دارين في الحي، تتجول دون أن تقصد وجهة محددة، تعبر فوق الذكريات، وتخشى الاقتراب من بابه، تودّ لو تقترب فقط من الدكان، وتراه يصرخ باسمها ويسألها عن أحوالها لا عن أحوال نرجس، عادت الدموع تعبر مقلتيها إلى العدم، لم تنس بعد أنه عاشق لنرجس، لا يمكن أن يحيد بحبه عنها، تذكرت يوم ميلاد نرجس، أخبرته حينها بالموعد، لم تكن تعرف أن قلبها يرغب بطبع قبلة الحب على جبين الغرام، كانت تظنه إعجاباً فحسب، يومها جاءها ببالونات كثيرة ملونة بألوان شتّى، أطلق صفيراً عالياً، فتحت نرجس النافذة، فأطلق البالونات، كتب على جميعها كلمات حب وغرام، وقتها ضحكت وأغلقت النافذة في وجه سعادته وتركته لخيبته، فندم على رفع رأسه عالياً نحو نافذة لم تُفتح ولن تُفتح له.

حاولت حينها دارين التخفيف عنه، فاقتربت من نرجس لتتصيّد أخبارها، وحاولت أن تظلّ مرافقة له، وفية لأحزانه، مخلصة لآلامه. وقتها ترك دارين واقفة واجمة ومشى وحيداً، يداه في جيب بنطاله، تاركاً أولاد الحي يهرولون وراء البالونات.

لم ترأف نرجس بحال دارين، ولم تهتم لأمرها، فلها حبيب توجته أميراً على عرش قلبها، أخفته عن أعين البشرية كلها، تريد أن تعيش سعادة عابثة تستحقها، متناسية أن البدايات لا تكتمل، وسيأتي يوم تغرق فيه في قاع المنتصف المميت قبل أن تسحقها النهاية الغامضة التي ستجعلها تندم على خيط البداية، وإما ترجعها خطوات إلى الخلف تبكي عبثها وسوء فهمها، ورقبتها التي ستلتوي لأنها رفعتها عالياً إلى قلبٍ لن يُفتح لها.

الآن هي واقعة في لهيب الحب، الجواهر، الثياب الحريرية، السيارة الفارهة، المطاعم الفخمة، الغزل المتواصل، اللمسات الرقيقة، جميعها

قيّدت نرجس بقيود ذهبية لن تخلعها بل سترفض خلعها، تلك القيود كانت يوماً ما حلمها لتتفوق على أقرانها.

يواعدها كلّ ليلة، تحت شجرة الكينا الضخمة، يلتحف بلحاف الليل ليستتر خالعاً عنه ثوب التقى، يرتدي بنطال جينز وقميصاً ملوناً، يغرق نفسه في عطر تشتهيه النساء، يسمعها أغاني الحب، فيغني لها بصوته الآسر. تبتسم كأنها انتصرت عليه، يبتسم معلناً فوزه عليها، تشعر بأنه أصبح خاتماً في إصبعها، لن يخرج إلا بالبتر وهذا ما ترفضه. جلست جواره ولسانه يفوح بكلمات الغزل، أخفض صوت المسجل، ونظر إليها قائلاً:

- أنت جميلة اليوم.
- شكراً لك، لمَ تواعدني في ظلام الليل.

- لأن القمر لا يخرج نهاراً، أنت تنيرين عتمة الليالي، فيما في النهار أراك عادية قد منحتك الشمس القليل من النور، لكن في الليل يمنحك القمر النور كله.
- أسمعني المزيد.
- علقتُ على الجدران أربعة مرايا، كي يصبح لي أربع زوجات، جميعهن أنتِ.

سرّت بإنجازها الصغير، ها هو يحقق ما تطلبه منه كأنه مصباح علاء السحري.

- متى سأراها؟
- الأمر أمرك وأنا طوع يديك، تعالي وارقصي على شرايين قلبي ولا تحرقي أوردتي، ففيه أنت، وحدك من تنيرين ظلمته، تعالي واعزفي لحناً، فنحلم بجنة خالدة تجمعنا.

وافقت بإيماءة صغيرة من رأسها، وانطلقا معاً، يجوبان شوارع دمشق الصاخبة بالحياة والحب والمرح والفرح والكثير الكثير من الحرب.

ستذهب إلى بيته، وتفعل ما تشاء وترغب، ستجتاز التقاليد والقوانين وتدوس عليها، ستكون حرّة في فعل ما ينهرها عنه الجميع، لن تقيّدها قيود ولا حدود، ستقف في شقته وترقص إلى أن يكتمل القمر، إلى أن تشرق الشمس وتصيح الديكة، ستعزف كل ألحان موتسارت وباخ وبيتهوفن، وتقفز إلى صدره كطفلة فرحة بلعبة جديدة امتلكتها، سيغازل قلبها ويضحكان، لن يخشيا أحداً، فهناك هما حرّان، هو الملك وهي الملكة.

دخلت بيتها، صعدت إلى غرفتها، ارتمت على سريرها، فرحة بما جدّ من حكايتهما. شغّلت الحاسوب لتكتب عن رجل الكلمة، نرجس وليدة اللحظة فحسب، الماضي عندها موت محتم، وقدرٌ حدث وانتهت آثاره. والمستقبل عندها بعيد جداً ولن تقتل نفسها بالقلق من أجله. كتبت

وكتبت حتى اختنقت من كثرة الكلمات، فالحروف جميعها ازدحمت على شاشتها تتشاجر أيّها تبدأ أولاً.

انتهت من كل ذلك وتركت الأزرار تكمل ما كتبته. وقفت عند النافذة تريح ناظريها، فوجدته في الأسفل، بثوبه ناصع البياض، لا تدري متى جاء، قد كانا معاً قبل قليل، كان يتحدث مع هشام حديثاً مهماً، تأملته كأنه آخر لا تعرفه، هنا الوقار والعفة والرزانة، وهناك معها المجون والفجور والرذيلة، وماذا سيكون في بيته؟ وحدهما والشيطان ثالثهما، لا يهمها من سيكون، ما يهمها سعادتها التي تحصل عليها برفقته، فقد ترك نساء الأرض وخصّها بالحب والغرام.

انشغل هشام بتجهيز الشاي لضيفه، فاسترق تيم الله النظر إلى الأعلى، ابتسم لمرآها، كانت واضعة يدها أسفل ذقنها، ومرفقها على طرف النافذة. جاء هشام فانتبه له تيم الله وأخفض بصره، شتم هشاماً في سره

لأنه قطع عليه لحظات الهيام، نظر هشام إليها شذراً، وأطرق رأسه يصبّ الشاي لشيخه، ثم قال:

- أتعرف نرجس يا شيخي؟

أفاق من شروده، سأله ببرود:

- ومن تكون؟
- تلك الفتاة في الأعلى التي تسترق النظر إلينا، صاحبة هذا البيت الكبير، أظنك لم ترها من قبل وإلا كنت عرفتها.
- وما حاجتي بها لأعرفها.
- يا شيخنا هذه الفتاة تقطن وحدها، أيعقل هذا؟ ضاعت النخوة والرجولة في هذا الزمن، حتى باتت الفتيات بقطن وحيدات.
- وماذا يضيرك في ذلك؟

- اسمعني يا شيخي، هام بها مالك، رفضته لفقره وهيئته البالية، لا تريد من الحياة سوى المال، تمشي في الحي كطاووس مغرور، كأن الحي كُتب لها وهي وريثته الوحيدة.
- يا رجل اتق الله فيها، واحذر الغيبة فإنها طريق الهلاك، أعاذنا الله وإياك منها.
- والله يا شيخي أنا أتحدث من حرقة في الفؤاد على شباب الحي ورجاله، كلهم يرغبون بها ويتابعونها بنظراتهم، يقتنصون الفرص لإرسال رسائل غرام إليها، وهي لا تكترث بأحدهم، ولا تعير أحدهم اهتماماً، عندها مال وفير، في استطاعتها العيش في أرقى أحياء دمشق، لم اختارت حينا المظلم الفقير؟ أظنها لتعبث بعقول الشباب كما تريد.

وقف تيم الله وزفر وحوقل، استغفر ربه، وصاح بهشام:

- مالنا وما لها يا رجل، ادعُ لها بالهداية بدلاً من الحديث عنها كالنسوة الحيارى.

جلس هشام يستغفر ربه ويعتذر لشيخه، ودعه الشيخ وغادر الحي بوقار، كأن نرجس لا تمتّ له بصلة ولا تعنيه، لم ينظر إليها، فإن كان هشام قد تحدث عنها قليلاً، فالحديث كله يلفّ ويدور في كل البيوت.

سطعت الشمس في كبد السماء، استفاقت نرجس، فتحت عينيها ليوم سيكون مميزاً، هذا أول رجل تمتد العلاقة بينها وبينه فتصل إلى حدود شقته، ستكون تجربة مثيرة وجريئة، قفزت من سريرها، جهزت ثيابها على عجل، استحمت بصابونها الليلكي، ارتدت ثوبها الأبيض القصير، تزينت كأنها عروس في حفلتها، جهزت حقيبة صغيرة، وضعت فيها ما يلزمها من ثوب الرقص وحاجات مهمة.

جاءت رسالة إلى هاتفها، جلست على سريرها تستمتع بها "ستغفين الليلة على صدري، وترتاحين إلى نبضاتي، تعالي بسرعة كي نمنح الود

لبعضنا، نتفق ألا نخون، ونقوى بالإيمان، تعالي يا صغيرتي لنعيش قصة غرام وهيام نكون فيها أوفى عاشقين، فعندما ينبض القلب باسمك تنحني الحروف إجلالاً، فتسمع بوحي الشجي، وعندما ترقصين أنحني وأعزف لكِ أوتار الهيام، معاً نبدأ حياة وردية، شعارها الحب والصدق والسلام، كوني معي دوماً، بانتظارك في المكان المفضل لنا (تحت شجرة الكينا)".

ابتسمت لرسالته المليئة بأحرف الغرام، فكتبت له: "شيء هنا يلامسك في قلبي، دون أن أدري، يناجيك ويحكي للشمس حكايات الحب حتى المساء، شيء هنا في داخلي ينبض لك، لم يفصح عن هويته، مضيء رغم ضوء النهار، يسطع لأجلك بقوة. قادمة إليك حالاً".

خرجت مسرعة، مشت بكبرياء أمام أهل الحي، لم تلتفت إليهم، لم تنظر إلى المتسول وهو يستجديها. وصلت إلى مكانهما المعتاد، قبل يدها ولثمها، ثم قال:

- كيف حالك يا كل حالي.

- في أحسن حال.

- لننطلق إلى صهوة الحب إذن.

ابتسمت ولم تعقّب، لن تخبره بسعادتها وأنها الآن تكاد تطير فرحاً أكثر مما كانت في أي وقت مضى، وشقت السيارة طريقها إلى مكان الحبّ الجديد، حيث المتعة المحرّمة والكثير الكثير من الهيام والشوق والحنين، في تلك الشقة ابتسامات لا تنطفئ، أحلام لا تموت، أماني تتحقق.

وصلا إلى بناء كبير، مؤلف من طوابق عدة، جميع الشقق فارغة وغير مأهولة، ما عدا شقته، صعدا إليها، عانقت يده يدها حتى وصلا إليها.

في الداخل نظر إلى عينيها، ونظرات الحبّ تصدّرها عيناه إلى عينيها عشقاً وفيراً، أراد دغدغة مشاعرها بالدخول من بوابة الاحتضان، فالحضن عند المرأة له قدسية خاصة، ضمها إلى صدره، وقبل رأسها الصغير فضاع في حنايا صدره، استفاقت من العبث فهمس:

- هذا دليل حبي إياك، إن كنت مغرمة فستبادلينني العناق.

تصارعت الأفكار في رأسها، من جهة أعراف اجتماعية ودينية لا تسمح لها بذلك، ومن جهة قلبها يطلب الحب مخافة فقده.

تأمل قسمات جسدها الغض وأعادها إلى صدره ثانية كي يشبع منها فاستسلمت له. وهو لن يشبع من جسدها ولا من حبها وإن ضمّها عمراً كاملاً، سيبقى مشتاقاً إلى جسدها. أبعدها ثانية وقال:

- أريدك أن ترقصي لي.

أومأت برأسها، فتحت حقيبتها، أخرجت ثوب الرقص، استأذنته كي ترتديه، أفسح لها المجال، وذهب إلى غرفة أخرى، خلعت ثيابها وهو يتلصص عليها، يتأمل كل شبر في جسدها النحيل، سال لعابه كذئب غير صبور، أنى له الصبر وهي عارية أمامه، ارتدت ثوبها بإغراء لا يوصف، وبعد أن انتهت كشف الثوب عن ساقين كعودي خيزران، ومن أعلاه كشف عن نهدين صغيرين وظهر أبيض عارٍ، ربطت شعرها

كالكعكة، ارتدت حذاء الرقص، وقفت تنتظره، اقترب منها وصاح بصوتٍ عالٍ:

- الله! الله! ما هذا الجمال!

ابتسمت وأطرقت رأسها خجلة، أمسك يديها قائلاً لها:

- أريدك أن تحيي ليلتنا الأولى، اجعليها أبدية يا نرجس، ليلة خالدة تعيش أبد الدهر في ذاكرتنا، هنا بدأنا وهنا سننتهي.

سحبت يدها من يده وقالت:

- أهذه شقتك؟
- شقتنا يا نرجس.
- وسنتزوج فيها؟
- طبعاً يا صغيرتي.
- وستكون مملكتي؟

– وأنا أميرك، لا تتعبيني أكثر من ذلك، أنا توّاق إلى رقصك المثير، ارقصي على قلبي وفوق شراييني، لكن لا ترقصي على جراحي، لا ترقصي فوق دماري، ولا ترقصي على أحزاني.

– لمَ تقول ذلك؟

– لأنك فتاة تهوى الرقص، تعرف متى ترقص وأين ، تعرف أن الرقص هواية مثيرة، فترقص متى تشاء على جراح الآخرين، فتاة بارعة في العزف مثلك، تعرف كيف تختار نغماتها، وعلى قبور من تشاء تكسبها، تعرف كيف تقطع أوتارها عند الانتقام، أعشق رقصك يا نرجس، لكنني أخشاه.

– لكنّك لم ترَ رقصي من قبل.

– سأراه الآن وأعجب به وأعشقه، فأقضي الليالي الباقيات وحيداً، يقتلني الشوق ويفتك بي، وأنا أعيش وقع قدميك على أحزاني.

– لا تمت الأفراح، لنخلّد هذه اللحظة، ونيشها بكلّ حبّ وغرام.

ابتسم لها، قبل يدها، ثم جلس على الأريكة، وقفت قبالته، قدّمت أصابع قدميها إلى الخارج كلياً، كعباها متلاصقان، فشكّلت خطاً واحداً من القدمين، رفعت القدمين بمسافة قدم واحدة بين الكعبين، وضعت القدم اليمنى أمام القدم اليسرى، وضعت ذراعيها بشكل متصالب أمام بطنها، حنت الذراعين قليلاً، وانطلقت في الرقص.

طارت كفراشة تخشى الظلام، وإلى النور انتشرت، كأن الأرض ضاقت بها وحلّقت وحيدة في السماء، أين الجدران؟ لا تراها، هوت النجوم في الشقة ودارت حولها، صفق القمر لها وأنار ليلتها، انعكاس السماء أعطاها جمالاً رغم الظلام. هزّها السرور فراح يصفق بكلتا يديه، وهي تدور على أصابع قدميها، طرب لرقصها المثير، تمنى ألا تقف إلا وهو يعانقها، ها هو الثوب يرتفع ليكشف عن جمال كان مختبئاً، يختلس النظر بين الفينة والأخرى، ثم يعود فيدخل معها عالم أَمن الخيال: ويصرخ:

- لحظة أبدية يا نرجس، لا توقفيها.

ترقص ويصرخ، يشتدّ رقصها، يشتدّ صراخه، تدور كساعة زمنية تخشى التوقف، تريد إسعاده ويريد التهامها، مرّت ساعة، زادت ساعات وزاد انتظاره، تعبت، شعرت بالإرهاق، ارتمت في أحضانه، قبّل وجنتيها، مسح العرق المنسكب من جبينها بمنديله. جلست جواره منهكة خائرة القوى. قال لها:

- كنتِ باهرة، ساطعة كنجمة الصباح، مزهرة كوردة جورية، فواحة كياسمين بلادي، أراكِ في كلّ ما هو جميل، وكأنك من وضع لعلم الجمال أسسه وقيمه.

هي تدرك ذلك، بأن الجمال اشتق منها، لم تعقب على كلامه، انهمر من لسانه كلام الغزل والحب المنمّق، وهي سعيدة بانتظار المزيد.

– دعيني أغفُ بين أحضانك ولا توقظيني، العالم سيء يا نرجس بعيداً عن دفئك، أريد أن أقبلك وأسمع همساتك، أمرر أناملي على قسماتك، وأشتمّ رائحة أحلامك.

نظرت إليه، وأطرقت رأسها في حياء، أخجلة هي؟ أم ماذا؟ هل ترغب في المزيد؟ أم تريد منه أن يترك الكلام ليبدأ بالأفعال؟ جاءت إلى هنا كي تنعم بالحرية، ومع أن لها الحق في فعل ما تشاء دون مراقبة أحد، إلا أنها خائفة أن يمارس الضغط عليها ويجرّها إلى ما تخشاه. ولاسيما أنه رجل متديّن في العلن، كثير الالتزام ويفوقها إيماناً وهدياً.

– نرجس.

أفاقت من شرودها، رفعت رأسها إليه.

– أشتهي جسدك، كما تشتهي النحلة رحيق الزهور، اقتربي مني يا طفلتي لأنهل من شفتيكِ عسلاً طيّب المذاق، سأسكن بين

أحضانك لعلّي أطفئ لهيب الشوق، وأقتبس من آهاتك شعراً أكتبه وأنثره، اقتربي يا أشهى نساء الكون، فأنا إليك مشتاق.

تلاشى خوفها، اقتربت كما أراد، والتحما معاً، أدخلها في جسده ومارس الحب على ضوء شمعة خافتة احترقت لكي يغرقا في المتعة المحرمة أكثر، وتحت ستار الليل المخيف خلع تيم الله رداء الوقار والعفة وارتدى ثوب الرذيلة والمجون. مارسا الحب هنا فجعلاها لحظة أبدية خلّداها في ذاكرتيهما، لن تموت مع السنين، فقدت فيها نرجس أغلى ما تملكه الفتاة، ولم تنتبه بادئ الأمر، كانت منتشية من السعادة المؤقتة والغزل المحيط بها، سقاها الحب بحراً أغرقها.

وبعدها أفاقت من سباتها، وفهمت أنها أضاعت أعزّ ما تملك، غرّها حبّ المال والحبّ المحرّم، وسقطت في بئرٍ لا قرار له. ابتسم وقال:

- أعرف أنني الرجل الأول في حياتك، أعلم أيضاً أنك لم تمارسي الحب يوماً مع غيري، لا تخافي فلن تتغيّر نظرتي في الحب إليكِ، فأنتِ بتِّ جزءاً لا يتجزأ من أملاكي.

أفاقت من شرودها، هي ترفض أن تكون ملكاً لأحدهم.

- أنا لستُ ملكاً لك، ثم ما فعلناه ليس بصواب.
- لا ترتدي قناع التائبة.
- أفقتُ في التو ولم أفهم ما حصل.

أمسك يدها وقال:

- أخبرتك قبلاً أنني أعدّك زوجتي، وستكونين كذلك، لن أرحل مهما امتدت اللقاءات بيننا.

ضمها إلى صدره حتى كاد يكسر أضلاعها، ثم ما لبث أن أبعدها عنه وقال:

- اعزفي لي.

أمسكت الكمان وعزفت لحناً خالداً حزيناً، استند إلى الأريكة، وضع يده خلف رأسه مستمعاً إلى اللحن الحزين، أبهرته كثيراً بسبب قدرتها على العزف ببراعة، فرغت من تأدية مهمتها، ووضعت الكمان جانباً، قال لها:

- عديني يا نرجس.
- بماذا؟
- ألا تعزفين هذا اللحن لغيري.
- أعدك.
- ولا ترقصين لغيري.
- أعدك.
- متى أراك ثانية؟
- نتركها للأيام.
- الأيام تخون، أما الزمان فهو ملكٌ لنا، سأحدد متى أراك. أنا وأنتِ أصبحنا واحداً يا نرجس.

- أنا وأنت اثنان، نرجس لا تتحد مع أحد، أنا عنصر نبيل لا يتفاعل مع عنصر آخر.
- لكنك معشوقتي، أنتِ من أشيائي التي أهواها، وأصبحتِ جزءاً لا يتجزأ من ممتلكاتي.

وقفت نرجس غاضبة.

- لستُ طاولة أو ما شابه، أنا ملكة، لن أكون يوماً تابعة لك.
- أنا أيضاً جزء من ممتلكاتك، ألن تدافعي عن حبنا؟ ألن تغيري علي إن رأيتني مع إحداهن؟
- لا أغير، إن أردت ذلك فأنت اخترت الحثالة.
- لمَ هذا الكلام؟ لندافع عن حبنا معاً، لا أريد خسارتك.
- سندافع معاً دون التلفّظ بياء الملكية.

اعتذر منها تيم الله وقبلها كي ترضى عنه، بدلت ثيابها، وغادرا معاً، وعندما وصلا إلى شجرة الكينا، لثم يدها، ثم همس:

- شكراً.
- علامَ؟
- على كمية الفرح التي أدخلتها إلى قلبي.

ابتسمت، سرقت يدها من يده وترجلت من السيارة. تركته في ذهول من غرورها، لم تشكره، هي أكبر من أن تشكر أحدهم، تظن أن من واجبه إسعادها طالما هو متيّم بها. مشت مسرعة إلى الحي، تلتحف بستار الليل، شيعتها نظرات ساكنيه، انتقلت الأعين من الساعات المقيّدة للمعاصم ثم إليها، يتساءلون عن السبب الذي أخّرها إلى منتصف الليل، أين كانت ومع من؟ لا أجوبة، فُتحت النوافذ، تدلّت الرقاب، همسوا لبعضهم بشائعات لا تنتهي، وهي لا تستمع، تمشي كطاووس مغرور، كأنها لم تكن في موعدٍ للعشق والهيام، كمانها على كتفها الأيمن وحقيبتها على كتفها الأيسر. ولم تهتمّ بالنظرات الفضولية التي تجمهرت أمام بابها.

أغلقت بابها بعصبية من تطفلهم وفضولهم، خلعت حذاءها، ركضت إلى الأعلى، رمت أشياءها على الأرض، استحمت فأزالت درن تيم الله عنها، اغتسلت بماء الورد وعطر الليلك. ارتمت على السرير تفكّر في جحيم هذه الليلة، هل ستكمل حياتها بمجون؟ أم ستخضع لأعراف الدين والمجتمع.

استيقظت فزعة على طرقات الباب العنيفة، نظرت إلى الساعة بجوارها وتأففت " أوه الساعة الثامنة صباحاً، من المتطفل القادم لسلب راحتي" حاولت العودة إلى النوم، لكن الطرق على الباب اشتدّ. نزعت اللحاف عنها بعصبية، ارتدت قميصاً سترت به جسدها. هبطت الدرج وهي تتثاءب، فتحت الباب فوجدت دارين، تأملتها قليلاً، لم تفسح لها المجال بالدخول، فما كان من تلك إلا أن أبعدتها ودخلت البيت، أغلقت نرجس الباب بهدوء. عرفت بأنها آتية للتحدث بما حدث البارحة، ففي فمها حديث لا يؤجّل، ولسانها يوشك أن يبوح بكلام لا سلطة له على إيقافه. سألتها نرجس:

- ماذا هنالك؟
- أين كنت أمس؟
- وما شأنك أنت؟

- ليس شأني فحسب، بل شأن أهل الحي كله.

- ماذا يريدون مني؟

- كلهم غاضبون يا نرجس.

- لم؟ ألأني عدتُ في منتصف الليل؟

- ألا يكفي هذا السبب؟

وقفت نرجس أمام المرآة تداعب شعرها وقالت:

- ألم أذكّرهم بسندريلا؟ فهي أيضاً عادت في منتصف الليل.

- أيعني هذا أنك كنتِ مع الأمير؟

سكتت نرجس، فأكملت دارين:

- لا تختبري صبر أهل الحي يا نرجس، هم قادرون على إيذائك، فتجنبي غضبهم قدر ما تستطيعين، طالما سكنتِ في حيّهم وجب عليك أن تتبعي أعرافهم وتقاليدهم وقوانينهم.

- أجئتِ لتحاسبيني؟

- جئت لأحذّرك من غضبهم، ليس بك قوة على الوقوف في وجوههم.

استدارت إليها وقالت بغضب:

- وما يفعل غضبهم؟
- يخرجونك من بيتك بسهولة ويسر.
- لا أحد يستطيع إخراجي من مملكتي، أين الدليل على ما يقولون؟ أنا لا أسكن عندهم، ولا أعتاش من خيرهم.
- هم قادرون على تلفيق التهم ورميك خارجاً.
- خارجَ هذا الحي الموحل، الغارق في التعاسة المملوء بالجرذان والحشرات، غارق في الظلام وأهله لا يملكون ما يسدّ رمقهم، بمَ يفخرون؟
- ما الذي دعاكِ للعيش به إن كنتِ ترينه كذلك.
- كي أصبح أميرتهم.

- وها قد وصل أميرك، لمَ لمْ تبقي معه؟ لمَ عدتِ؟
- هذا أمر يخصّني وحدي، ارجعي إلى من بعثك ليستطلع الخبر، وقولي له إنه لا علاقة له بما أفعل.
- هل نسيتِ حبّ مالك إياك؟ ماذا إن جاء؟
- لا حاجة لي بحبّ ولد أخرق، غبي لا يعرف قدره وينظر إلى أعلى منه.

مشت دارين إلى الباب ببطء وقالت:

- وأميرك، أتحبينه؟ هل يليق بمقامك؟
- أجل وأكثر مما تتخيّلين.
- مبارك لك النصر يا صديقتي.
- صديقتك! في المرة الماضية صرّحت بكرهك إياي.
- كنت غاضبة من أفعالك الشقيّة، تعلمين بحبي الشقي لمالك، الذي أبت الأيام أن تنسيني إياه.

وصفقت الباب خلفها دون أن تسمع الرد من نرجس، خشيت أن تجرحها بكلماتها كعادتها.

كان شعور نرجس يتأرجح بين الشعور بالذنب واللامبالاة، أحياناً يتملّكها شعور أنها ضحية، فيحاول أن يرفع الذنب عنها، بإقناعها أن ما تفعله ليس خاطئاً، وأنها زوجته وإن كان دون عقد رسمي، يكفيه هذا الشعور ليصدّره إليها فتستورده بغباء مفرط.

توالت المكالمات الصوتية بينهما، يرقّ فيها صوتها، فتأخذ اتجاهاً آخر إلى مكالمات مرئية، فينعطف باتجاه أزقّة الحبّ وحرارته. ونرجس قابعة في انتظار انتهاء الحكاية، هل ستكون تحت المجهر؟ أم مستترة برداء الزلات.

أحياناً كثيرة كانت تتعالى داخلها مشاعر الذنب والخزي والعار، تتأرجح صورتها عن ذاتها، تحتلها مخاوف من مستقبلها معه، وهو يخدّرها بالمزيد من الوعود، ويدعمها بمزيد من اللذة المحرّمة.

ابتسم لها تيم الله وسرقها من أهل الحي، أودعها قصره، اشتمّ عطرها، همس لها:

- لا تضعي عطراً ثانية، أخشى أن يصبح الأمر فيما بعد شاقاً على نفسي، في كلّ مرة أشتمّ رائحتك أشعر بطعنة في القلب، سيبقى جرح قلبي نازفاً كلما اشتممت العطر ذاته.
- هل سنفترق؟
- وهل نستطيع؟ نحن نحب بصدق مرة واحدة فقط، وأنا أحببتك بكل صدق وإخلاص.
- وباقي المرات؟
- سأبقى في دروب الحب باحثاً عن شعور مشابه لغرامك.

ابتسمت، عانقها، ضحكت، هام بجمالها، تأوّهت، غازلها، طارت كفراشة سعيدة، لم تسعها جدران البيت، فحلّقت في الفضاء بأجنحة من خيال.

ارتطم كتفها بكتف دارين، نظرت إليها دارين، ابتسمت، بادلتها الابتسام، ثم قالت:

- جميل أن تقضي يومك دون أن تنتظري من أحد أن يسأل عنك.

- هل الوحدة عندك صديق جيد؟

- لديك ذاتك، أليست أجمل صديقة؟

- أظن ذلك، أفضل من صديق مزيف.

- ربما.

ضمت كتبها بقوة إلى صدرها، همت بالمغادرة، فسألتها نرجس دون أن تلتفت إليها:

- هل غلبك الشوق؟

تباً لها، دائما تضغط على الوتر الحساس، سكتت دارين برهة ثم أجابتها:

- أن تشتاقي للذكريات أصعب من أن تشتاقي للأشخاص.

التفتت إليها نرجس واقتربت منها قائلة:

- وهل له معك ذكريات؟

- يكفي أن الحي كله يذكّرني به، دكان هشام، بيته، طريق المدرسة، حتى نافذتك، في كل طريق مشاه لي ذكرى لطيفة.

غادرتها إلى المدرسة، جلست جوار هناء في الباحة، تمسح دمعتها، سألتها هناء عن السبب، فأجابت:

- أكذب على نفسي إن أخبرتك أنني بخير، أو أنني لا أشتاق إليه، أجد نفسي باحثة عنه في بعض الأحيان خلال سطور كتاباتي، وفي دروب المدينة، وفي نبض قلبي، أبحث عنه في تفاصيل الصباح، وغروب شمس الأيام.

- تخيّلي يا دارين، لو تحقق حلمك، وفي قمة يأسك ينفتح لك باب الحب، فتطلّ السعادة عليك، ويعانقك الفرح، أشعر أن مالكاً قادم ليتوّجك عروساً له.

ضحكت دارين وقالت بمرح:

- أتظنين ذلك؟
- بالتأكيد، سيدرك أن درب نرجس مغلق وسيعرف علاقتها الآثمة، جميع من في الحي غاضبون من تصرفاتها الأخيرة.
- أخبرتها بأمرهم ولم تهتم.
- لن تشعر إلا بالقيود تكبّل معصميها.

ظلّت دارين شاردة واجمة في كلام هناء، ما الذي تعرفه هناء ولا تعرفه هي؟ لم سيسعى أهل الحي لتكبيل يديها بالقيود؟ ما جريمتها؟ وما تفعله في السر لا تعلمه هي؟ هناء عندها الكثير من الأسرار لا تعلمها.

انتهى اليوم الدراسي، لم تنتظر هناء، أسرعت إلى البيت دون أن تريح عقلها قليلاً من التفكير بنرجس، دلفت إلى البيت، جلست على السرير، تفكّر بما قالته هناء عن نرجس، وتتخيّل ردود فعل مالك إن عرف، هل سيأتي إليها حاملاً الحب والغرام؟ غرقت في الأحلام، تباً لهناء، جعلتها تغوص في أوهامٍ كاذبة، اختلقت السراب وزينته لها حتى غدا واقعاً، كأنها تعرف مكانه، وهو يأتمر بأمرها.

دلفت رنا إلى الغرفة، نادت على دارين مرات عدة فأيقظتها من أوهامها، نظرت إليها كالبلهاء، اقتربت منها وسألتها:

- بمَ أنتِ شاردة؟ بوحي بما في قلبك، فكلّ شعور تكتمينه يسرق من عافيتك.
- تقتلنا أحياناً أسرارنا إن بُحنا بها، فوأدها أفضل من أن تخوننا.
- يجب أن تفهمي وتعرفي أنني الوحيدة التي تتحمل حزنك وبؤسك وتعاستك، فرفقاً بقلبك.

نظرت إليها وشردت، كيف تخبرها بحب من علاقة أحادية فاشلة، كيف تخبرها بألم الحب في قلبها والحبّ في الحيّ حرام وجناية كبرى، ستبقى وفية لهذا الحب، صامتة لا تلوي على شيء. حملت كتبها واستأذنتها في الذهاب إلى هناء. لا تود أن تختنق في البيوت، تريد أن تهرب من الجميع حتى هناء لا تريد أن تراها.

غادرت مسرعة قبل أن تستوقفها، خرجت من الزقاق الضيّق، اقتربت من دكان هشام، وجدت الشيخ تيم الله ينظر إلى الأعلى مبتسماً، نظرت إلى ما ينظر إليه فرأت الحبّ في عينيهما، لم يرها تيم الله، كان يطرق رأسه أرضاً كلما مر إنسان، وهشام مشغول في الدكان، مدّ المتسول يده إليها يطالب برزق من لدنها، أفاقت من شرودها والمتسول مازال يصرخ " من مال الله أعطوني كسرة خبز" لم تفهم في البداية، كيف تجتمع العفة والرجس في إنسان؟ نظرت إلى الأرض وأكملت مشيتها جوار تيم الله الذي خفض رأسه حين لمحها، ظلت شاردة الذهن، تمشي في الطرقات دون وجهة محددة، ما رأته اليوم أفقدها صوابها، عادت إلى

البيت مع أن الجدران باتت تخنقها، ترغب في البقاء أكثر في الشارع. ولكن حتى جدران الحي باتت تخنقها، لم يعد لها متسع من مكان، ليس هناك من تبوح له بما يختلج في نفسها، الصمت أسلم لها من الكلام، ستبقى تنتظر عبث نرجس، إلى أين سينتهي بها المطاف؟

اقترب مالك من الغريب تأمله قليلاً، ثم قال:

- أشعر بأننا تلاقينا من قبل، ولكني لا أذكر الزمان والمكان.
- أدعى حامداً، أعمل منذ أعوام خلت مع السيدة سهام، أنا لم أرك من قبل.
- ربما، لكن وجهك مألوفٌ لي، أحاول تذكّر أين صادفتك، لكن ذاكرتي لا تسعفني بشيء.
- الوجوه تتشابه، فإن لكل وجه أربعين شبيهاً.
- لك حق.

اقتربت سهام من الاثنين ووقفت في المنتصف قائلة:

- حامد هو من يوصل الأموال إلى نرجس، يستمع إليها، يقف جوارها في كلّ محنة، حتى اعتقدت تلك بأنه مخلّصها من جميع المشكلات التي تغرق نفسها بها. لكن منذ أشهر لم تعد ترتاد المقهى ذاته، إنما اكتفت بحب جديد زيّن حياتها وأسعد قلبها.

نظر مالك إليه والشرر يقدح في عينيه:

- هل تعيش نرجس قصة حب جديد؟
- أجل غارقة في هذا الحب، تائهة في متاهته.

غادرها غاضباً إلى غرفته، جلس على عتبتها والدمع يسكن المقلتين، كان يريد أن يفاجئها بثقافته وتحضّره ففاجأته بحب جديد لم يخطر على باله.

قال حامد لسهام:

- ما كان يجدر بك أن تخبريه عن غرام نرجس وهو في غرامها واقع.
- كان على أحدنا إخباره بالحقيقة، كي يوقظ نفسه من وهم الحب.
- أصدقيني القول يا سيدتي، أترغبين أن يكون زوجاً لابنتك، لذلك تحاولين إبعاده عن ساحة نرجس.

ابتسمت سهام بمكرٍ وقالت:

- وهل يرضى؟ تعرف كم هامت به دارين دون أن يلحظ، حبّه لنرجس أغشى بصره، أتمنى أن يرى لينا ويتخذها زوجة له، هو يستحق حنان لينا، وهي تستحق رجلاً مثله.

اقتربت لينا وجلست جواره، ابتسمت له وقالت:

- هلا أخبرتني بما يؤلم قلبك؟
- هل جربت الحب يا لينا؟

نظرت إليه وقالت بحزن:

- أمرني الطبيب ذات يوم ألا أعيش الغرام، ففيه هلاكي، يجب علي أن أحترس من التعلّق بشيء لن يكون لي، قلبي هشّ يا مالك، لن أصمد في وجه الفراق.
- كان لي قلب يا لينا، وأظنه الآن قد مات، لن أغرم بامرأة أخرى، لن أحتمل المزيد من الآلام.
- هل باءت جميع محاولاتك بالفشل.

- جميعها يا لينا.
- إذن انسها، واختر أخرى تليق بمقامك فتتنعم وإياها بحب لا ينضب.
- تقولين هذا لأنك لم تجربي الحب، ولا تعرفين خفقان قلب المحب.
- أقول هذا لأنني أعرف نرجس جيداً، لن تغرم بك وإن أخضعتَ لها النجوم.

تركته وعادت إلى غرفتها، تلمّست قلبها، تنفست بصعوبة، ارتمت على السرير، أخذت قرصاً من دوائها، نظرت إليه عبر النافذة، كأنها بدأت تهواه ولكنها تقنع نفسها أنه لن يكون لها. الحب محرم عندها، الطبيب وسهام منعا عنها الحب كي لا يقتلها، وتشعر أنها ستموت ذات يوم شهيدة لحب لم تختره.

توالت اللقاءات بينهما في تلك الشقة، شيخ في النهار وفاجر في الليل، مارسا الحبّ بنهمٍ ليالي كثيرة، رقصا معاً ساعات عديدة، راقصها في سنا الفجر، عزفت له العديد من الألحان، غازلها بكثير من العبارات المنمقة، ضمها إلى صدره أياماً لا تحصى.

كبر الحب الحرام بينهما ونما في غفلة عن أهل الحي المنكوب بالحروب، وكأنهما داخل صندوق حديدي يلعبان وحيدين، والعالم خارجهما لا يعرف ما يحصل في الداخل، أهداها الكثير من الجواهر، أدركت أن هذا الحب الذي كانت تحلم به إذ أوصلها إلى آفاق عليا، كانت تتمناها دوماً وتسعى إلى بلوغها، وها قد وصلتها بذكائها وجمالها.

كانت لا تتشاجر معه إلا حين يعدّها جزءاً لا يتجزأ من أملاكه، أو حين يغير عليها بشدّة ويعنفها على كلامها المعسول مع غيره، أو يحاصرها فيجعلها تحتشم في ملابسها، هي تكره القيود وتعشق الحرية. كعصفورة في السماء لا تخشى صياداً أو طائراً جارحاً، لها الأرض كما لها

السماء، فمن هو ليقيّد حريتها؟ هو حبيب فحسب، تخشى الزواج منه أحياناً كي لا يأسرها بأمر العادات والتقاليد، فيقيدها بعادات بالية تنفر منها، تريده أن يبقى في مرتبة الحبيب، تنتهي منه ما إن تعود إلى بيتها، فترميه خارجاً، ليس له سلطة عليها. هي مخيّرة لكل أمر وستبقى كذلك، لن يسيّرها من كان بأمر الحب.

في النهاية أذعن لأمرها واستلم لقيادتها، سار كما تحب وترغب، خضع لها وأدرك أنه سيبقى حبيباً في صفحتها فحسب، ممنوع عليه التعدي أكثر من ذلك، وهذا أسعده كثيراً كي يتهرّب من زواج لا يرغب فيه، لن يرضى لراقصة أن تشاركه حياته الأسرية. الناس يرونه شيخاً جليلاً، له كيانه في المجتمع المحلي، لن يغفر له المجتمع إن تزوج واحدة كهذه، وامرأته ستطالب بالفراق، لن ترضى أن تتشارك هي وأخرى به.

سرّ لرفض نرجس لكنه أوهمها بحزنه، اشتكى كثيراً، ألح في مرات عدة أنه يرغب بالزواج منها، لا يريدها خليلة لفراشه فحسب بل زوجة دائمة، حاول إقناعها بشتى السبل الممكنة كي تبقى له حبيبة على الدوام.

أما أهل الحي فجميعهم غاضبون منها، ومن سهرها خارج الحي وعودتها في منتصف الليل، كلهم يلوكون حديثها ويخلقون الإشاعات بحقها، ولا أحد يتبعها ليتصيّد أخبارها، همهم الشائعات التي تسري على الألسن مسرى النار في الهشيم ، وإن طُلب من أحدهم تتبعها، يهزّ كتفيه لا مبالياً، ويوضّح أن الأمر لا يعنيه، وإن صارت حديثاً في مجالسهم هرع الكل ليسمعوا آخر الأخبار، الجميع يصرخون ويصممون على توبيخها، وحين تعود رافعة الرأس تمشي بكبرياء يخالط ظنونهم، يهمسون خلف النوافذ بأحاديث لم يسمعها أحد من قبل، فتنتقل أخبارها كوجبة دسمة على موائدهم، وكشعلة نار إلى بيوتهم، الكل فضوليون يريدون أن يعرفوا مع من كانت، تلتقط نظراتهم، تبادلهم نظرات ازدراء واشمئزاز.

وفي الصباح تسارع دارين الخطى إليها لتسرق منها أخباراً جديدة، وصل خوفها إلى حد جعلها تفكّر أنها تذهب إلى مالك وتعيش الحب معه، والأخيرة عبثاً تعطيها جواباً يكذب ظنونها، تجعلها تختنق بغيظها، تحاول أن تسألها هل كانت وجهتها إلى تيم الله أم إلى مالك؟ لكن تخاف من ردة فعل نرجس فتصمت. والكلّ خلف الباب حائرون لا يعرفون إلى أين تجرُّ حيّهم، أهي صاحبة الحق؟ أم هم؟ أهي ظالمة؟ أم مظلومة؟

- الحي ليس حيّها، ليست فرداً منا، لنطردها.

هكذا صاح الجانب المعارض لأفعالها، أما الجانب الحكيم، فتحدث بنبرة منخفضة:

- لنتريث قليلاً ونستطلع الأخبار.

ولا أخبار جديدة، أفعالها مبهمة، لا أحد له القدرة على فك طلاسمها، لا أحد يجرؤ على التحدث معها، الكل خائفون من ردود فعلها، أيراقبونها؟ لا .. لن يلقوا لها بالاً.

ضاقت الحال بنرجس جراء فضولهم وتطفلهم، خشيت أن يراقبوها ويعرفوا طريقها، فطلبت من تيم الله ألا يأتيها، وصارت تذهب إليه وحدها كلما اشتاقت إليه وكلما اشتاق إليها.

نسيت طريق المقهى وتناست الغريب وما عادت تشتكي إليه هماً أصابها، مادام يرسل لها المال كل شهر ويودعه في حسابها البنكي فلا حاجة له الآن.

تيم الله يعرف جميع أخبارها من هشام، يخشى أن تصرفه من حياتها كي ترضي أهل الحي الشرفاء، يريدها عوناً له على الحياة ومصاعبها. وهشام لا يتوانى في الحديث عنها وعن مالك، يشتكي أمرها للشيخ ومعه طائفة من أهل الحي، يطلب منهم شيخهم التريث قليلاً، لا يجوز قصف

المحصنات الغافلات، ربما تذهب إلى صديقاتها، يرفضون المبدأ ويتقبلونه بالإكراه، كانوا يتقبّلونها فيما بينهم، لكنهم الآن ما عاد يرضيهم أن تعيش في حيّهم راقصة ترقص نصف عارية، فالشبان لا حديث لهم سوى ساقيها وتنورتها القصيرة، والنسوة خائفات على رجالهن، العجائز يصحن بأن من العار أن تعيش بينهم فتاة مومس، يحوقل الشيخ تيم الله ويستغفر لهم من ضلالهم، ثم يأمرهم أن يتفرّغوا للاستغفار، بدلاً من الحديث بهذه الترّهات، ويقول:

- لا يجوز لكم الإتيان بكلام لا صحة له، أين الدليل على قولكم هذا؟ أين يا أهل الحي الشرفاء؟ استغفروا الله.

يستغفرون خالقهم ويطلبون منه مسامحتهم على ما تفوّهت ألسنتهم، يقبلون على يدي شيخهم ويقبّلونهما، وهي ترقص في غرفتها أمام مراياها، تغني بصوت كالهمس، غير مبالية بكلامهم ولا بغضب دارين الذي تخمده دوماً، وتذهب تلك خائبة لا تأخذ شيئاً، تخبرها أنها ستعود

كل ليلة في منتصف الليل وليمت بغيظه من يموت، لها حياتها وللجميع حياتهم، ليس هنالك من أهل الحي وصيّ عليها.

تذهب دارين فتجلس جوار والدها، تقص عليه من أنباء نرجس إلا عن هويّة الأمير، خشية أن يتسرب الخبر إلى مالك فلا يعود إلى الديار، تريده أن يعود بأسرع وقت لعلّ الكلمات والمشاعر تتلاقى، وتتمكن من إبلاغه بها وأنها كبرت، لن يسخر من صغرها بعد الآن.

يرحل والدها إلى الجميع ويخبرهم بما أخبرته ابنته، ثم يطلب المشورة من الشيخ، وهذا يحاول أن يطمئنهم أن كلامهم عار من الصحة، فينفضّ الجمع من حوله مطمئني البال.

وأما دارين فوالدها لا يعرف بأن لها موعداً كل يوم أمام دكان هشام، تقف جوار المتسول، تستنجد طيف حبيب لن يعود، لم يعدها بشيء وغاب كلمح البصر.

أدرك هشام من نظرات عينيها أن قلبها ولى مشتاقاً إلى قلب الحبيب، فانتظارها هنا بأمر الغرام لم يأتِ من فراغ، لكن حبّها بريء طاهر، ساكن صامت. يفتح كل يوم الدكان ينظر إليها ويحوقل ويتحسّر عليها وعلى مالك، أي حبّ أضاعه ذاك الأحمق؟ يتمنى أن يعود لتكون هذه هديته لا تلك المتعجرفة.

جاءتها في الثامنة مساءً لتمنعها من موعد الحب والهيام، وجدت نرجس قد تزينت وتعطّرت، تأملت جمالها الربّاني وحسدتها على هذا الجمال، قالت:

- كل الكنوز تحت تصرّفك يا نرجس، لكنكِ عاجزة عن امتلاكها.

استدارت إليها، نظرت برهة إلى دارين، ثم أجابت:

- وأنا امتلكتُ جميع الكنوز.
- مسكينة أنتِ إن ظننتِ أنك امتلكتِ إحداها.

لم تعقّب على كلامها. أردفت دارين:

- تريدين فقط أن تكوني موضع مديح في الجميع، وحين يتوقف ضخ المديح ترحلين.
- أنا لم أرحل من قبل.
- تهددينهم بالرحيل.
- من أراد الرحيل فلن أستبقيه، ومن أراد البقاء فهنيئاً له في قلبي.

- وماذا عن السعادة هل وجدتها؟ مهما بحثتِ عنها، فلن تجديها سوى في ذاتك.
- أجئت ناصحة؟ أم حكيمة؟
- جئت لأمنعك من الذهاب إلى مكان لم يخلق لك؟ لا تنظري إلى الأعلى، كما فعلها من قبلك.
- لا تشبّهيني بمالك الغبي، ثم ما الذي خلق لي؟ الحي الفقير الغارق في الظلام، أم ابن الحي البار بأهله؟
- كلنا في الحي سواء.
- لمَ جئت يا دارين؟
- لأحذّرك من حنق أهل الحي.
- ألم يملوا؟ ما شأنهم بي؟
- يقولون عنك عاهرة، تظهرين مفاتنك للرجال في محاولة لإثارة غرائزهم.

- لكل رجل عاهرة يا دارين، فمن أوجد هذه الكلمة رجل يمارس الحب مع أخرى، المرأة لا تمارس العهر وحدها، وإنما تمارسه مع رجل عاهر.
- هم لا يفهمون ذلك، لهم الحق في إدانتك.
- فليدينوا أعينهم أولاً حين تنظر إلى مفترق نهديّ وبياض ساقيّ.

سكتتا معاً، ثم بددت الصمت نرجس بقولها:

- الامتحان اقترب يا دارين، فاهتمي بدروسك جيداً، ولا تشغلي بالك بأمرٍ لا يعنيك، ادرسي جيداً، كي يراك مالك كبيرة حين يرجع إلى الديار. ثم لا تعطليني عن موعدي.
- جئت لأمنعك، لأكون نواة خير في طريقك.

وضعت يدها على قلب دارين وقالت:

- أيمكنك أن تمنعي حبّك لمالك من الانزلاق في مهاوي غرامه، إلى اللقاء.

غادرت دارين قبل نرجس، ووقفت جوار المتسول، أدركت أنها غارقة في وحل الحب الحرام، ولا فكاك منه إلا بإرادة قوية من نرجس، شيعتها بعينين حزينتين، فنرجس لم تفهم بعد عقلية أهل الحي، ولا تدري شيئاً عن مكايدهم التي يحيكونها في جوف الليل المدلهم.

ذهبت نرجس إلى تيم الله دون أن تخبره عن الأحاديث المشتعلة في الحي، والصراعات المحتدمة بسببها، دون أن يخبرها عن الحكايات التي يتناقلها الجميع. لا أحاديث في هذه الشقة سوى حكايات الحب والغرام.

وفي خطبة الجمعة يصعد المنبر، يقف شامخاً، يعظ الرجال بالمحافظة على نسائهم والستر عليهن، يتحدث كثيراً عن الكاسيات العاريات المتبرّجات، الموسيقى والرقص والغناء هي أدوات الشيطان الأكبر، يتحدث كثيراً حتى تكاد حنجرته تهرب من مكانها لشدة ما تنتفخ، يمسح عرقه بمنديله عدة مرات، ثم يتحدث عن عقوبة الزاني والزانية، وعن عقوبة الحب الحرام، يقف كثيراً حتى تتورم قدماه، يستغفر الله ويدعو

للجميع بالبركة، ينزل من منبره، يهرع الصبية والشباب للثم كفيه، ويطلب الرجال منه الدعاء، يخرج وفي قلبه فرحة عارمة، فقد أدى مهمته بنجاح وارتياح دون أخطاء.

وتمضي الأيام وتمرّ بسرعة البرق، دون أن يعرف أح المكان الذي تذهب إليه نرجس، خافوا أن يكذب حدسهم وتكون بريئة من اتهامهم، لذلك صدقوا الإشاعات دون أن يتبينوا مدى صدقها.

ونرجس تتحداهم وتغيظهم بالذهاب إلى حيث لا يدرون، لم تعد تذهب كما في السابق يومياً، وإنما قللت مرات الذهاب، بفارق مرة في الأسبوع، أو مرة في الأسبوعين. حتى تعبت وتعب جسدها الرقيق، بدأت تشكو عللاً غريبة عليها وآلاماً لا تطيقها، يجتاحها غثيان في كل صباح، ويتبعه إقياء في كل مرة تأكل فيها، كلما حاولت الرقص يصيبها دوار فظيع، فتترنح يميناً ويساراً وترتمي على سريرها.

هاجمتها كآبة طغت عليها، وجعلت حياتها أكثر سوداوية، لا تطيق مسّ طعام أو شراب، باتت تكره الخروج من جحرها. لم تفكّر بادئ الأمر في هذه الأعراض، استمرّت في التزايد، فراحت تشكو لتيم الله من النصب الذي أصابها، ذهل وشرد وغاب قليلاً بتفكيره، غاب عن ذهنهما اليوم الذي سيأتي ويتشكل وليده في رحمها، أمرها أن تجري اختبار حمل بأسرع ما يمكنها. انصاعت لأمره، راعها أن يكون ما جال في خاطره صحيحاً.

ذهبت إلى صيدلية بعيدة وابتاعت جهاز اختبار حمل. وفي البيت عندما أجرت الاختبار، صدمت إذ كان الحمل إيجابياً، جلست على سريرها تفكّر وتقضم أظافرها، جال في خاطرها آراء أهل الحي، أول مرّة تفكّر في ردود فعلهم، في ردود فعل دارين ومالك وذاك الغريب.

كان رنين هاتفها لا يسكت، يلحّ عليها ويريد أن تجيبه، يريد أن يعرف نتيجة الاختبار وهي غارقة في شرودها، بعد تسع مكالمات واردة لم

تجب في إحداها، أجابت في العاشرة، صاح في وجهها لأنها لم تردّ على مكالماته، ولأنه قلق ويريد أن يعرف النتيجة. أخبرته بما لا يريد، يريدها أن تفنّد توقعاته وظنونه، وبّخها كثيراً لأنها السبب فيما حصل، لو انتبهت جيداً لما حصل ما حصل. أمرها أن تجري فوراً عملية إجهاض وتنساه، لا يريد أن يزجّ اسمه معها في تهمة البغاء.

قُطع الاتصال ووجدت نفسها وحيدة كورقة صفراء في مهبّ الريح. أرادت أن تطمئن إلى أن الخبر صحيح وليس كذباً. فارتدت ملابسها وذهبت إلى طبيب تشكو طفلاً أرهقها، تشكل في رحمها دون طلب الإذن منها، جهاز الاختبار كان صادقاً، زمن الحمل شهر واحد، غفلت عنه نرجس تشكو وحدها التعب. طلبت منه أن يجري لها عملية إجهاض، رفض رفضاً قاطعاً، وأخبرها أن هذا حرام شرعاً، وأنها تأخرت كثيراً.

أومأت برأسها وغادرت العيادة، لا تعرف ما تفعل، وما ردة فعل الجميع، جلست في الحديقة تحت ظلّ شجرة الكينا، اتصلت به، أجابها فوراً، صارحته بحقيقة حملها، صمتٌ فظيع جاءها من الطرف الآخر، لا يأتيها سوى شهيقه الغاضب، كررتها بنبرة أعلى، الصمت كان ثقيلاً عليها وعلى ما في بطنها، صرخت أعلى:

- ها أنا أقول لك الكلمة التي يرعبك سماعها، ألم تسمع؟ ألم تعِ ما أقول؟ ما عساي أفعل الآن؟

شقّ الصمت صراخه الذي كاد يثقب أذنيها"

- ولم الصراخ؟ أتظنين أنني أصم لا أسمعك، ليس لي علاقة بما يحتوي رحمك، أنت الملومة، لا أنا.
- ما الذي تهذي به؟ أجننت؟
- أجهضي، اقتلي نفسك، أحرقي بيتك كما كل مرة، اهربي من المكان، ابحثي عن مالك وتزوجيه، لكن إياك الاقتراب مني، أنا

رجلٌ لي مكانة عالية في المجتمع، لي أسرة لا رغبة لي في تدميرها بسبب لامبالاتك.

- ووعودك وعهودك، والحياة الخالدة، والجنة، والذكريات، ما تقول فيها؟

- اغربي عن ساحتي، لا أريدك أن تأتي بعد الآن إلى الشقة، لا أريد رؤية وجهك ثانية.

- سأفضحك وأشي بك.

ضحك ضحكة عالية وقال:

- ستفضحين نفسك يا غبية، سيلاحقك الخزي والعار، هذا إثم كبير وعقوبته أكبر.

صمتت نرجس وفي مقلتيها تجمهر الدمع الفضولي، يشاهد ما حدث ويسمع، ومن بين الدموع سقطت دمعتها الوحيدة، قطع صمتها، إذ قال لها:

- لا تخبري أحداً بوالد الطفل وإلا شوّهت الجمال الذي به تفخرين، لا تدعيني أبتر الأصابع التي تهوى العزف، والقدم التي تهوى الرقص، وإن اضطررتُ فسأهشّم المرايا فوق رأسك، فأجعلها شاهدة على عذابك، لا تخبري أحداً عني، تصرفي وحدك كأنني لم أكن في بداية القصة.

أغلق في وجهها، خبأت رأسها في يديها، وانسكب دمعها السخي، كان مخزونها من الدمع غزيراً، فتكاثف على خديها، عادت إلى البيت بخفي حنين، بروح خربة ونفس كئيبة، أغلقت النافذة، ولم يسمع أحد عزفها تلك الليلة، لم تفتح الباب لدارين، كانت تحاول الاتصال به، لكن على ما يبدو قد حظرها، نفاها من معجم حياته. بدلت ثيابها وغادرت إليه، تريد وضع حل للمشكلة، لا أن تقف وحدها تجابه التيّار.

وجدته أمام البناء، تقدّمت إليه، خلع نظارته السوداء وزفر بغضب، أمسك يدها وقادها إلى السيارة، جلس خلف المقود وهي جواره، حاول

قدر الإمكان أن يكون الحوار هادئاً، فلا يعلو صوته ولا يغضب. قال بهدوء:

- نرجس اسمعي لما أقول، لا أريد أن أظلمك معي في حياة ليست مكتملة، ستعيشين معي حياة مؤقتة لا نهاية لها، لا أستطيع تدمير أسرة كاملة من أجل طفل لم يكتمل بعد.
- وماذا عني؟
- الظروف أقوى منا، تعرفين من أكون ومن تكونين، ما عساي أن أخبر الناس عن الطفل، أنا أشعر بالذنب نحوك، ولكن ما عساي أفعل، لا طاقة لي بمساعدتك، لا جلادة لي على تحمل المسؤولية.
- أنت تهرب من الالتزام بمسوّغات واهية، كنتَ لا تتورّع عن طلب لذة مجانية محرّمة، لم تشعر بالذنب نحوها، وحين صار الأمر حقيقة وواقعاً بدأت بالهرب بمسوّغات باطلة.

- نرجس لا ترفعي صوتك، نحن في السيارة وأمامنا العامة، نتحاور لنصل.
- تصل وحدك وتتركني في منتصف الطريق، أنت تبحث عن حلٍّ لنفسك بالهروب من المأزق، وتتركني في المصيدة أدافع وحدي عن عار لحق بي.
- افهمي يا نرجس، لن أتمكن من مواجهة المعوّقات، ولن أستطيع إعلان الحب الذي بيننا، فإعلان الطفل للعامة بمثابة إعلان ما فعلناه أنا وأنتِ.
- إذن أعلن بشجاعة ما فعلت، ألم تفعل ذلك بعزيمة وهمّة عالية، لم يكن يهمك ما سيحصل، بل كان همّك اللحظة الحاضرة.
- اخرسي يا نرجس وانسي ما دار بيننا، لا تعودي إلى هنا لأنني أغلقت الشقة إلى الأبد، هيا ترجّلي من السيارة، وإياكِ والعبث معي، فحينها لن تفلتي من عقابي.

غادرته بقلب يعتصر ألماً، وانزوت وحيدة في بيتها الكبير، لا تكلّم أحداً ولا يقربها أحد.

الكلّ في الحي وخارجه تجري حياتهم كما المعتاد، مالك تفوّق في دراسته، قرأ العديد من الكتب، كان قارئاً نهماً، قرأ في قواعد الإعراب، الشعر، الرواية، القصة، المسرح، الفلك، الجغرافيا، التاريخ، الفلسفة، الموسيقا، صار يحاور كبار الناس، إذ تعمّق بالثقافة العربية كثيراً، أُعجبت به لينا وصارت تحاوره كل ليلة قبل إخلادهما إلى النوم، تحدّثه عن حبّ نما في قلبها، يحدّثها عن وهم حبّ خسره، ينتظر كل ليلة حامداً على عتبة غرفته فيسمع منه القصص عن نرجس ومشاكلها، يضمّ كتبه إلى صدره ويدخل غرفته، لم يعد يحلم أن تكون عروساً له، بل يحلم بلحظة الانتقام منها. لا يستذكر دارين ولا أخته، بل والدته التي صعب عليه وداعها بسبب هروبه كالفأر الجبان.

تحدّثه سهام كل يوم عن لينا وقلب لينا الهش، وهو صامت يستمع إليها وذهنه في دنيا غير هذه الدنيا.

نجحت دارين في الثانوية، اختارت الفنون الجميلة لتكمل تعليمها، ستبدع في الفن والرسم والنحت، وكما تحدثها نرجس عن باخ وبيتهوفن وموتسارت، ستحدثها عن دافنشي وبيكاسو وفان كوخ، كبرت ونضجت وأصبحت تتكلم كما الكبار، ما عادت العبرات تعبر عينيها كلما ذُكر اسم مالك على لسان أحدهم، ما عادت تقف أمام دكان هشام تنتظره، إنما صارت تحثّ الخطى خوف أن يطلّ وجه مالك عليها فيعيدها إلى الماضي ويتركها في دهاليزه تائهة لا تعرف الخروج. لم تعد تزور هناء إلا نادراً، ولم تعد تزور نرجس أبداً، أرادت أن تبني حياة تخصّها، بعيداً عن الألم، أرادت أن تنسى مالكاً، فيأتيها وحده عاشقاً تائهاً في دهاليز حبّها.

انغلقت نرجس على ذاتها، خجلة من وعورة الطريق الذي سيحملها إلى النهاية. خرجت إلى المقهى بعد سنتين من الغياب، والمفاجأة أن جاءها الغريب وجلس أمامها، ابتسمت له، نزلت دمعتها الوحيدة، لم تعتذر عن غيابها كل هذه المدة، وإنما قالت:

- أنا وحيدة الآن.

- أنا معك.

- تخلّى عني.

- أصلاً لم يكن لكِ، نفس النافذة التي تعذّب مالك فيها، عُذبتِ فيها.

- أأنتَ شامتٌ بخطبٍ ألمّ بي؟

- طبعاً لا، ولكن أشفق عليكما من وهم الحب.

- أريد حلاً، لا فلسفة لا تفضي إلى طريق.

- اهربي.

- لم يكن الهروب يوماً حلاً، سأظلّ إذن العمر كله هاربة، أبحث عن حلّ يدوم، أرغب في الاختفاء.
- ابقي ثلاثة أشهر فحسب، وبعدها سأجد لك شقة في حيٍّ آخر.

سرّت لإجابته، ورسمت شفتاها ابتسامة صغيرة.

صاحت سهام بحامد:

- لستُ موافقة يا حامد.
- أليست ابنتك؟
- دعها تتحمل عواقب أفعالها.
- ستكون فضيحة كبرى إن لم تغيّر مسكنها.
- لن أكون لها درعاً إلى الأبد، تعبتُ من أفعالها، لن أحميها بعد الآن، دعها لأهل الحي يؤدبونها، لن يظلموها، سيعدّونها ابنة لهم، لأنها وحيدة دون سند.
- أول مرة تتحدثين عنها كأنها خصمك.

نظرت إليه بقلق، ثم تأملت ما حولها وقالت بارتباك:

- لا أريد أن يعود مالك إليها.
- أتدمرين حياتها، لأنك أردت أن يكون مالك زوجاً لابنتك.

سكتت ولم تعقّب، أردف:

- لمَ تدمرين حياتها ثاني مرة؟ لمَ تصرّين على غلق الأبواب في وجهها؟ هي لا تعرف أحداً سوانا، يجب أن نساندها ولا ندعها تسقط في أيديهم.

صرخت بصوتٍ عالٍ:

- كفى يا حامد، كفى، ابق مراقباً فحسب، ولا تتدخل في حياتها، كن مشاهداً وابتعد عن الأحداث، لا تقترب من نارها، وإن ذهبتْ إلى المقهى، فجالسها واستمع إليها، ولا تأتِ بفعل قبل أن آمرك به.

- كما تشائين وترغبين يا سيدتي.

غادر حامد وجلست على الأريكة، قلقة من أفعال نرجس، تريد حمايتها ولكنها خائفة أن تصل إلى مالك فتخسره، لا تريد لمالك الرجوع إلى الحي، تريده أن يكون لها ولابنتها، لتذهب نرجس إلى حيث تشاء ولكن لا تقترب منهما البتة.

مرت ثلاثة أشهر أخرى، وهي في عزلة تامة، لا تخرج إلا لماماً، لجلب حاجات المنزل فحسب، زاد التوتر وهاجس القلق لا يفارقها، وتيم الله اختفى وولى خارج السرب، لم تعد تراه أبداً ولم تعد تفتح نافذتها، الكل يتساءلون عن سبب عزلتها ولا أحد يقترب من بابها، حتى دارين لم تعد تهتم بزيارتها. ذهبت إلى المقهى كما وعدها الغريب، جلس أمامها وقال:

- تغيّرت كثيراً يا نرجس.
- هل أبدو سمينة؟
- على العكس، تبدين كأن القلق قد أذهب جمالك.
- أأبدو قبيحة الآن؟
- ليس كما تظنين، ربما لأنك كنتِ تدمنين ذاك الشخص، أتشتاقينه؟
- أفكّر أحياناً، أيرتجف من الغياب؟ أيتعرض لأعراض الألم من الانسحاب القسري؟ أتنهشه قسوته في الهروب من الواقع؟

- لا يكترث لأمرك يا نرجس.

- لا أحد غيرك يكترث لي.

سعل قليلاً ومسح فمه بمنديله، بددت الصمت بسؤالها:

- هل ابتعت لي منزلاً؟

- ليس بعد يا نرجس.

- ها قد انقضت أشهر ثلاثة.

- لم أستطع توفير المال.

سكتت ولم تعقّب، غادرته بصمت ثم وقفت واستدارت إليه قائلة:

- شكراً لخذلانك.

غادرت المكان، ظلّ صامتاً لا يلوي على شيء، ذهب إلى سهام يعاتبها، وقف قبالتها في الحديقة وقال:

- أرجوك يا سيدتي، هي الآن في شهرها السادس، لن يرحمها أهل الحي.

- ما عساي أفعل لها؟ أأجلبها إلى هنا؟ أضع الزيت جوار النار.
- لا أطلب منك ذلك، إنما ابتاعي لها بيتاً صغيراً يؤويها، بعيداً عن أهل الحي.
- هل منحتها النقود؟
- أجل.
- لا طاقة لي بتقديم مساعدة أكبر، أغلق الموضوع يا حامد ولا تفتحه ثانية.

الشهر السابع، الشهر الثامن، ثم وقعت الصدمة على أهل الحي وهم يرونها، نادوا الجميع، أن ما قلقنا بسببه صار واقعاً، لم تكن مجرّد إشاعات كاذبة، الكل ينادون الكل، خرج الجميع من منازلهم، صغار وكبار، شابات وعجائز، بعضهم خرج حافي القدمين، وقفت بعض النسوة على الأسطح وخلف ستائر النوافذ تسمع وترى.

- نرجس حامل.

- أيّة مصيبة هذه!!

- ممن؟

- لا أحد يعلم.

- نادوا الشيخ الجليل.

- يا شيخنا تعال واستمع، لترى بعينك ما حصل.

جاء تيم الله مع الوفد المرافق له من كبار أهل الحي، الكلّ يطالبون بالقصاص، أمسكوها، قيّدوها، يريدون معرفة الحقيقة منها، الكل ينظرون

إليها وإلى بطنها، يا للعار! لقد جلبت العار لأهل الحي الشرفاء، أغمضت عينيها، أشاحت وجهها، خائفة من تهديدات تيم الله، أيعقل أن يكون الجاني نفسه القاضي؟ الصياد والفريسة مجتمعان معاً، لا هو سيقف معها ولا هي ستلتمس الأمان منه. لن يصدقها أحد إن أخبرتهم أن من يقف أمامهم بثوب العفة هو من فعلها حين خلع عنه هذا الرداء وارتدى ثوباً آخر لا يمت للعفة بصلة.

ركض حامد، حتى كاد أن يقع وهو ينادي سهام، خرجت إليه، وخرج مالك وهرعت لينا، أخبرهم بعقد أهل الحيّ جلسة علنية لمحاسبة نرجس على وزرها. يجب أن تساعدها، تنجيها من بطشهم، استفسر مالك عن السبب وهو هائج طائش، يريد أن يعرف ما جدّ في غيابه، أخبره بما حصل، لم ينظر مالك إلى أحد، وإنما ركض بسرعة ليكون لها عوناً مما هي فيه، استقلّ سيارة أجرة وحثّ سائقها على السرعة، كان يدعو لها في سرّه، ويسكب الدمع الغزير، لا عليها وإنما على فعلتها، لمَ فعلت في غيابه ما فعلت؟ كان سيسندها، ما الذي أعجبها في وحل الرذيلة لتترك

الحلال وتهرع إلى الحرام، ظلّ يفكر ويلعن نرجس مئة مرّة ومن فعلها معها ألف مرّة، من هو؟ لا يعرفه، أتعرفه دارين؟ لا يدري، أسئلة كثيرة لا أجوبة لها.

وصل إلى الجموع المتجمهرة، الشيخ يلقي خطبة عصماء في عقوبة الزاني، يسألها أمام الجميع عن الفاعل، اقترب مالك، أبعد الجمع بيديه، غاص بهم، وصل إلى المقدمة، لم ينتبه له أحد لأن أعينهم كانت مصوّبة إلى نرجس، وحدها دارين من رأته فشهقت، أعاد إليها الماضي وذكرياته، لمعت عيناها حبّاً وحنيناً، سرق منها لحظة الحاضر وهي تتأمل التغييرات التي حصلت له. فرحت كثيراً لمرآه. تركت نرجس وعارها وباتت مفتونة بحبيب لا يعيرها أي اهتمام.

كانت نرجس أيضاً تتأمله وتتأمل ما حصل له من تغيير، في مظهره وفي لحيته وفي وجهه الجميل، هي تعرف أنه مازال مرغماً بها ووحده من يستطيع حمل عارها إلى قبره. صاحت بالجميع

- هذا والده.

أشارت إليه بسهمٍ من نار، دارت الأعين جميعها إلى مالك، لم يستوعب ما حصل، لأنهم أوثقوه، وانهالوا عليه ضرباً ورفساً ولكماً، صرخ هشام بهم، ولولت دارين، وصاحت هناء، لم يأبهوا إلى عويل أحد. صرخ من تحت أقدامهم.

- اتركوها وشأنها، وعاقبوني أنا.

فعلوا ذلك، بعد أن بصقوا في وجهها، قادوا مالكاً إلى السجن، وانفض الجمع يحكي من فيه ما حدث في هذا اليوم العظيم.

الجزء الثالث

لحقت دارين بنرجس، دخلت خلفها قبل أن تغلق الباب. قالت نرجس بتعب:

- اقصري الحديث يا دارين.
- لم آتي لأقصّ عليكِ بطولاتك، وإنما لذنب ارتكبته في التو.
- لا أودّ الحديث في هذا الموضوع.
- من يودّ الحديث فيه إذن، أنت تعلمين كما أعلم أن مالكاً بريء مما نُسب إليه من تهم، ما ذنبه لتضعيه في موقفٍ لا يحسد عليه؟

- ذنبه أنه عاشق، ذنبه أنه جاء في الوقت الخاطئ. صدقيني إني إن لم أخبرهم عنه، فسيفعلها هو، قرأت في عينيه ما يودّ فعله.

صاحت دارين بها:

- نرجس اذهبي وأخبري الجميع بالحقيقة، الحقيقة التي نعرفها أنا وأنت.

جحظت عينا نرجس، فسألتها:

- وما تعرفين؟
- شيخك الموقّر، القاضي والجلاد والمتهم، إن لم تذهبي لتبرئته، فسأذهب وأقصّ ما حصل بينكما.
- وما دليلك على ذلك؟

سكتت دارين والدمع انسكب من عينيها، ثم قالت:

- لقد رأيته يطيل النظر إليكِ، أرجوك يا نرجس أعلني براءة مالك.
- لا أستطيع.

بكت دارين أمام نرجس وظلت تتوسل، والأخيرة لا تجيب، ثم قطعت الصمت قائلة:

- ساعديه يا دارين، أما أنا فلا أستطيع، افهميني أرجوك، اختلقي حكايات وهمية وأنقذيه.

قصّت عليها تهديدات تيم الله وأنها لا تقوى على الوقوف في وجه السيل. صعدت إلى غرفتها، تركت الأخيرة تغادر وحدها، مشت في الطرق القصيرة تائهة، كم اشتاقت إليه، قلبها يرقص طرباً لمرآه، وصلت إلى قسم الشرطة، اقتربت من غرفة المحقق، خفق قلبها وارتجف جسدها، رأت الغريب يقسم للمحقق أن مالكاً لم يغادر بيته قط، ولم يرَ نرجس طيلة ثلاث سنوات، اقتربت ووقفت جوار الغريب شاركته القسم، سرَّ الغريب لمرآها، ربت على كتفها بأن الأمور ستتحسن قريباً، ابتسمت له، هي لا تعرفه، ولكنها تعرف أنه يحب مالكاً لذلك أحبته، ظلا

جالسين قرابة الساعة حتى أُفرج عنه، عانقه الغريب، فيما بقيت تراقب الملامح الجديدة، وعيناها تغزل حباً حقيقياً.

عادت معه إلى الحي تثرثر بأخبار أهله، تقصّ عليه ما حدث في غيابه، سعيدة لأنها تمشي جواره، تحكي وهو ينصت، شارداً فيما حصل، ثم بدد الصمت بقوله:

- أتدرين يا دارين؟ لو أن نرجس لم تشِ بي لكنتُ أخبرتُ الجميع أنني من فعلها، كنت أريد الستر عليها فحسب.
- أمازلتَ مغرماً بها؟
- الأمر لا يتعلق بالغرام قدر ما يتعلّق بالستر على أنثى غريبة وحيدة، نحن أهلها يا دارين، تعيش بيننا منذ سنين، لا يمكنني التخلي عنها، لو كنتِ مكانها كنتُ سأفعل الشيء عينه وأنقذك مما أنتِ فيه.

سرّت لمثاله ولأنه أدخلها في جوهر قضية لا تمتّ لها بصلة، دخلا الحي معاً، قال لها:

– اذهبي إلى بيتك، لا يستحب أن يرانا أحد، حينها سنكون حديث الحي كله.

أطرقت رأسها أرضاً، وغادرت قبله إلى بيتها. عانقه هشام عناق الأخ لأخيه، طبطب على جرح قلبه، وربت على كتفه، جلس جواره وصبّ له الشاي، حدّثه بأحاديث غفلت عنها دارين، ثم قال:

– أنت شهمٌ يا مالك، سيعتذر الجميع منك قريباً، هذا وعدٌ مني.

شكره لكرم الضيافة، وغادر إلى بيته. شاع الخبر بين الجميع أن مالكاً بريء من تهمة نسبت إليه. وصار كل من يراه يقدّم له اعتذاراً. عانقته والدته وبكت كثيراً وهو في حضنها، عانقته هناء أيضاً، جلستا جواره على الأريكة، الأم تتلمسه وتبكي وتلك تعانقه وتبكي، وبعد أن انتهت نوبة البكاء قالت والدته:

- سأزوّجك يا مالك أجمل فتاة في الحي سواء شئت أم أبيت.
- لا أرغب في الزواج الآن.
- لن أفقدك مرة أخرى، بسببها ابتعدت عني، بسببها سُجنت، أخشى عليك إن ظللت تركض خلفها أن تجنّ أو أفقدك إلى الأبد.
- أرجوك أغلقي هذا الحديث، لا تفتحيه ثانية.

صرخت في وجهه:

- أتريدني أن أموت قهراً، استمع لما أقول ولن تندم، لن أخسرك بسبب طيشك.

أومأ برأسه علامة الموافقة، وقبل رأس أمه، طلبت من هناء أن تعد غرفة أخيها وتجهز له الغداء. قامت الأخيرة ترتب غرفته، فلحقها يريد أن يستمع إلى تفاصيل لم يسمعها من قبل، سألها:

- هناء أتعرفين من فعلها مع نرجس؟

نظرت إليه وقالت:

- لا، لكن أظن دارين تعرفه.
- وما أدراك؟
- لأنها لم تقاطع نرجس بتاتاً، بل ظلّت تزورها، فربما علمت منها من الفاعل، نرجس كانت تسهر كل ليلة خارج البيت وتعود في منتصف الليل، وفي الصباح تزورها دارين فتستعلم منها سبب سهرها خارجاً.
- إذن اتصلي بدارين، دعيها تزرنا فنستعلم منها.
- ووالدتك ماذا عنها؟
- صحيح لا يعقل أن نتحدث بهذا الأمر أمام والدتنا، غداً نذهب إليها.
- سنزورها معاً في الجامعة، ستسرّ كثيراً إن رأتنا، هي تدرس في كلية الفنون.

في اليوم التالي نظر مالك إلى المتسول، الآن أدرك حقيقة جديدة، اقترب مالك منه، جلس القرفصاء، ترك هناء عند ناصية الشارع، مد المتسول يده يطلب المال، أمسك مالك بيده الممدودة، ابتسم له ثم قال:

- الآن عرفتُ أين رأيت هذا الوجه المليح، وأنا دائماً كنت أردد في نفسي ما يفعل متسول في حي أهله فقراء.

- لأن الفقير كريم يا مالك.

- لأن فيه نرجس يا حامد.

نظر إليه حامد وابتسم، ضحك مالك وأكمل سيره مع هناء، وفي الجامعة سرّت دارين حين رأتهما، أقبلت نحوهما باسمة، قالت هناء:

- مالك يريد محادثتك بأمرٍ خاص.

سرّت بذلك دارين، ظنّت بأنه سيتفوّه بكلمات الحب، سيعلن لها حبه وهيامه، احمرّت وجنتاها وعانقت كتبها، غادرتهما هناء وظلا وحيدين. قال لها بصوتٍ هادئ:

- من فعلها مع نرجس؟

صُدمت بسؤاله وخاب ظنّها، أيعقل أنه كلما اجتمعا تكون نرجس محور الحديث، وهي لا وجود لها على الأرض.

- ولم ترغب في معرفته؟
- عندي أسبابي يا دارين، أفصحي عن اسمه ولا تخافي.
- لا أخافه، إنما أخاف على نرجس من غيّه، فهو هددها لئلا تحدث الناس عنه، لذلك لجأت للمراوغة باتهامك أنت، لم تكن تريد بك شرّاً، طلبت مني أن أساعدك، كي لا تجرّ اسمه في التحقيقات.
- أخبريني أنت فحسب، سأنقذها من براثنه، لا تخافي يا دارين.

ترددت قليلاً قبل أن تجيب، تلكأت في الإجابة، شجعها بابتسامة، ثم أعلنت الجواب فوراً:

- تيم الله.

صُعق مالك وبُهت، قال:

- أتقولين الحقّ يا دارين؟ أمتأكدة أنت؟ كان هو من يقاضيها، لا يجوز لنا الخوض في أعراض الآخرين ولا سيما إن كان شيخاً.
- تيم الله ليس شيخاً، وإنما يدّعي ذلك، لا يمتّ للدين بصلة، ولا يعرف الله، رأيته يطيل النظر إلى نافذة نرجس وهي تبتسم كالبلهاء، إن رآهما غبي لا يفقه في الحب شيئاً فسيعرف أن ما بينهما عشق وهيام، ثم استنبأت الخبر من نرجس ولم تفنّد، بل صارحتني بحقيقة ما رأيته.

غادرها غاضباً، عانقت كتبها أكثر، غادرت جامعتها إلى بيتها، جلست على السرير تقضم أظافرها، اقتربت منها رنا، جلست جوارها، ثم بددت الصمت بقولها:

- لم تصرّين على السقوط في هاوية الصمت.
- أشعر أنني ضائعة في غرفة دائرية مظلمة، لا أستطيع الخروج.

- ما دفعك إلى اعتناق هذا الشعور؟
- لأنني مجرد كومبارس ولم أكن يوماً البطلة. أشعر وكأنني قصة قصيرة بدأتْ بألم وانتهتْ بألم.
- ألا تستطيعين النجاة من كل هذا؟
- ليتني أستطيع. أقاوم التيّار فيسحبني إلى القاع.
- ابكي إذن يا دارين، وانفضي عن كاهليك الهمّ والحزن. إن عندي أخباراً سارة ستسعدك كثيراً وتزيل عنك الهمّ والغم.

مسحت دموعها دارين وقالت:

- هاتها، لنُزل الحزن جانباً.
- جاءني اليوم خاطباً، جاءت والدته تطلبني عروساً لابنها، احزري من يكون؟
- أهو من أهل الحي.
- ابنها البار.

- بالتأكيد سيكون محظوظاً لأنه اختارك عروساً له.

ضحكت رنا وصفقت بسعادة: ثم قالت:

- وأنا مسرورة لأنه اختارني.

- أخبريني من يكون يا رنا، متشوقة لأعرف من؟

- مالك.

جحظت عيناها صدمة، أوقفت الدموع لتتبين وقع الخبر، ثم قالت:

- أجادة فيما تقولين؟

- منذ قليل رحلت والدته بعد أن اتفقت مع والدتي، أنا سعيدة جدّاً يا دارين، فهو أجمل شباب الحي وألطفهم.

اختنقت في كلامها لم تستطع أن تبارك لها، قالت بألم:

- نسيتُ كتبي عند هناء، سأجلبها لأدرس.

ركضت إلى هناء، تريد أن تتبين الخبر، فمن لعب بإعدادات الحكاية، أليست هي البطلة الثانوية، لمَ أُزيحت عن عرشها وجلب أخرى لا أساس لها في القصة، لم تحلم به يوماً ولم يكن لها مطلباً، كيف صارت في يوم وليلة أميرة حكايته ودارين ستبقى الغريبة إلى أبد الدهر عنه. أدخلتها هناء إلى غرفتها، بكتا معاً، عانقتها، مسحت دموعها، والدموع لم تتوقف، تكذب الصمود والقوة، ثم سألت دارين:

- أرجوك كذبي الخبر، أخبريني أن رنا تمازحني. أو أنني في كابوس وسأستيقظ منه يوماً.
- كم وددتُ لو استطعت أن أمنع والدتي، لكنها أسكتتني، قالت لي إن من العيب أن نخطب الصغيرة، والكبيرة مازالت موجودة. سنجرح خاطرها إن فعلنا ذلك.
- وماذا عن كسر خاطري، وتحطيم قلبي؟
- صدقيني أمي أعدّت كل شيء، حتى مالك لا يعرف من العروس بعد، حصل ذلك ونحن معك في الجامعة.

انهارت على السرير.

- احتفظتُ بقلبي من أجله، حتى يملّ نرجس ويأتيني، كيف سأراه الآن، وهو زوج لأختي. كيف سأجلس وإياه ونتحاور ونتحادث.
- دارين أرجوك لا توقفي حياتك عند مالك.
- وماذا عني يا هناء؟ لمَ لا يراني أحد؟ لمَ لا يلمح أحد آلامي؟ أخشى أن استمر في وجع ينخر قلبي ولا أستطيع أن أحيا من جديد.
- كوني قوية يا دارين، هو لم يكن قدرك، ولن يكون، لكل امرئ نصيب في الحياة، ومالك ليس من نصيبك.

ظلّت تواسيها حتى سمعت زغاريد والدته، نظرا معاً إلى الباب المغلق، أطرقت هناء بصرها إلى الأرض وقالت:

- مالك أعلن موافقته.

صدمة قاسية تلقتها دارين في بيته، قالت بهدوء بعد دقائق من الصمت القاسي:

- افسحي لي مجالاً للخروج، لا أريده أن يراني منكسرة وشاحبة الوجه.

أومأت برأسها، خرجت من الغرفة، ظلت تلك جامدة لا تتحرك، عادت إليها وقادتها إلى الباب.

اقتربت دارين من رنا وباركت لها الزواج، عانقتها متمنية لها زواجاً سعيداً، كانت تتمنى أن تخبرها أن تحافظ عليه ولا تكسره، سمعت زغاريد والدتها بسبب قبول والدها هذا الزواج.

مرّت الأيام وسكبت الكحول على جرح دارين، مرت بين فرح رنا وضحكاتها وتجهيزاتها لعرسها، وحزن دارين والاحتماء بالدراسة والهروب إلى نرجس، وشرود مالك. عُقد القران، تم الزفاف بعده بأسبوع، جميع أهل الحي حضروا العرس، إلا نرجس التي زارتها آلام المخاض،

هربت دارين من فرح أختها وحبيبها لتكون عوناً لنرجس. كانت لا تغادرها إلا لماماً. تعمل كرجل آلي بلا أحاسيس ولا مشاعر، تتأملها نرجس بعيون دامعة، عرفت أن الحب يكسر الظهر، يؤلم المعدة، يحرق الفؤاد، يعمي العيون. بددت نرجس الصمت بقولها:

– أأنت غاضبة يا دارين؟

نظرت إليها وجلست جوارها:

– ربما مستاءة، أخشى أن ترتفع الحرارةِ في صدري ولا تنخفض.

– أنا أفكر مثلك يا دارين، فقد وقعتُ في الغرام أيضاً، لكنه نرجسي.

– أأنتِ جادة فيما تقولين؟ وأنتِ ماذا؟

– ما قصدك؟

– النرجسي لا يعرف أنه كذلك أبداً.

– أفكر أحياناً يا دارين، هل هذا الذي أحببته حقاً؟ أكان يراني لذة مجانية فقط، لم يكن ينظر إلا في ذاته، ربما لم يحبني أصلاً،

كان يحبّ حبي إياه فحسب، لذلك أشعر أحياناً بالحنق يأكل قلبي وأتمنى لو انتقم منه. أما أنتِ فالموضوع مختلف، مالك لا يعلم بحبك له.

- لأنني دائماً في الظل.
- وما الذي منعك من الظهور في النور؟ لو وقفتِ مرة واحدة أمامه وأخبرته بغرامك. كان الأمر سيختلف كثيراً. ستكون لك الأولوية.
- أنحن في سباق؟
- الحياة كلها في سباق كبير، وتحدٍّ عظيم، والمنتصر هو الفائز.
- رنا لم تكن لها حياتها مثلنا، حياتها عادية، لا عشق ولا غرام ولا تحديات أو مغامرات، لم تصارع مثلنا ولم تنازع، لم تتألم، لم تحارب مثلي، والقدر ساق لها ما حلمتُ به، أخذت في دقيقة ما عجزتُ عن امتلاكه.
- لذلك أوقفي دموعك ولا توقفي حياتك، ولا تحملي رنا ذنب هزيمتك وفوزها بمالك.

أومأت برأسها وغادرت إلى البيت، البيت دون أختها لا يطاق، لكن الآن في إمكانها أن تبكي دون أن تسألها عن السبب، ودون أن تحاصرها بأسئلة عديدة.

جاءتهم في المساء ومعها مالك، انفردت بها، تحدثها عن زواجها، ثرية هي بحبّ مالك لها. قالت دارين:

- أراك سعيدة.
- وما لي لا أكون سعيدة، قد وقعتُ في غرامه وهو كذلك، يُحار دوماً كيف يسعدني، جميل هو الحب يا دارين.
- أأحببته بهذه السرعة؟
- طبعاً، لا أستطيع أن أصف مقدار الحب في قلبي، أنتِ يا دارين لا تعرفين الحب ولم تجرّبيه، مهما تحدثت لك عن الحب فلن تفقهي حرفاً ولن تشعري بما أشعر.

نظرت إليها بقلب متألم وصمتت، جلست على السرير وقالت:

- الحب مؤلم يا رنا، يؤلم أكثر من حرق النيران، نرجس لم تبكِ حين احترقت دارها، لكنها بكت حين أحبت، يغرقك الحب أكثر مما يغرقك الماء، الحب يكسر ضهرك، لا يرممك فلا تنجرفي معه، قد يغدر بك في أي لحظة.
- لم تقولين ذلك؟
- مجرّد كلام سمعته من نرجس اليوم، لا تستمعي إليه وعيشي حياتك بسعادة، أنا أبارك لك هذا الحب، وسعيدة من أجلك، هنيئاً لك برجل كمالك.

ابتلعت غصتها واختنقت بها.

تعبت لينا ولازمت السرير ولم تفارقه بعد أن وصلها خبر زواج مالك، أفاقت من وهم اصطنعته على واقع ترفضه، هي تعرف أن أمر الحب مرفوض عندها، لم تدرِ أنها تعلّقت بأسدال الحب ونسيت ما قاله الطبيب، أن الحبّ داء سيقضي على قلبها يوماً.

جلست سهام وحامد في الصالة، تؤنب نفسها وتعاتب أفعالها.

- أنا السبب، ما كان يجدر بي أن أضعه في طريقها، كنت أريد له الخلاص من جحيم نرجس فحسب.
- ولكن كنتِ تتمنين أن يحدث هذا التقارب.
- ظننتُ أن هناك إعجاباً من طرفه، لكنني كنت غبية في ظنوني.

تركته وصعدت إلى غرفة لينا، جلست على كرسي مقابل سريرها، كانت لينا صامتة، تتأمل السقف بشرود.

- ابكي يا لينا، تبدين أكثر ألماً لأنك لا تبكين.

- لو كان البكاء يعيد حبيباً لكنتُ أغرقتُ الغرفة بالدموع، لكنه الانطفاء يا أمي هو أشدّ قسوة من دمع العيون، أن ينطفئ ما بداخلي فأفقد الحماسة والشغف، وأكمل حياتي فارغة بلا أمل.
- هو لم يكن لكِ منذ البداية، أخطأتُ حين وضعته في طريقك.
- ما كان لي أن أحب، لو ظننته عابر سبيل سيودع حياتي يوماً لكان أفضل من أن يدّعي بريقي كل ليلة ثم يطفئني فجأة كأنه كره انبعاث نوري.
- بالله عليكِ يا لينا، لا ترهقي قلبك، فأنا لا أملك في الدنيا سواك.
- عديني يا أمي.
- بماذا؟
- عديني إن توفاني الله أن تجلبي نرجس وطفلها، وتعتني بهما، كوني جدة طيبة وأماً حانية، ساعدي نرجس على الوقوف مجدداً.

- أرجوك لا تنبسي بهذه الكلمات، ستعيشين عمراً طويلاً، أطلقي لمشاعرك العنان ولا تحبسيها فتختنقي بها، وتذبح قلبك، اصرخي، ابكي، حطّمي الأواني، هشمي النوافذ، ولا تصمتي.
- متعبة يا أمي كهذا الجدار الذي أضناه الوقوف فأرهق ولم يجد من يستند إليه.

عانقتها والدتها وهمست:

- كل شيء سيغدو أفضل يا لينا.
- ليتني استطعت أن أودّعه، لكنتُ احتفظتُ بذكراه، ولكن ما يؤلمني أنني لم أودعه ولم أتمنى يوماً وداعه.

بحث مالك عن تيم الله في كل مكان ظنّ أنه فيه، لم يعثر له على أثر، كأنه ذرة تراب واختفت، سأل عن مكان إقامته، أعطوه عنوان قريته، غادر إليها مسرعاً، وفيها سأل عنه في كل الحارات والأزقة والدكاكين، حتى وصل إلى حيّه. لم يجد إلا الجيران الذين لعنوه وشتموه ومع كل من يتواصل معه، سخروا من مالك حين أخبرهم بأنه شيخ يخطب في مسجد حيّهم. تجمع الناس حوله وكل واحد يتحدث عما يعرفه عنه.

- رجل قذر، هرب بعد أن سرق جيرانه.
- اعتدى على طفلة صغيرة.
- لقد كان يتشاجر باستمرار مع أهل القرية.
- أمه كانت دائماً تغضب منه وتدعو عليه. سمعتُ أنه كان يضربها.
- اسمه تيم فقط، وليس تيم الله، ولا يفقه شيئاً في أمور الدين.

أطرق رأسه يفكّر فيما قالوه عنه، حتى سمع أحدهم يقول:

- الكلّ في هذه القرية له ثأر عنده، إن كان لك ثأر فانضم إلينا، ومن المحتمل أنه لن يعود إلى هنا، هو أجبن من أن يواجه كل هذه التحديات.

شكر الجميع، وعاد بخفي حنين إلى حيّه، وجد دارين تركض، استوقفها يسألها عن السبب، لقد حانت ساعة ولادة نرجس ولا تعرف ما تفعل، طلب منها أن تحضرها ريثما يوقف سيارة أجرة، خرجت نرجس صامتة متألمة، تكبت صراخها كي لا يشمت بها أهل الحي. شقّت السيارة طريقها إلى المشفى، وفي المشفى كانت تصرخ وتبكي وتتألم، أدخلوها فوراً، جاءت الموظفة تطلب بياناتها من مالك معتقدة أنه زوجها، اعتذر لها وسوّغ غياب زوجها بالسفر وهم جيرانها، دفع لها الفاتورة، وجلس ودارين بجانب غرفتها في انتظارها. مرّت ساعة وهي في صراخ وعويل حتى سمعا بكاء طفل صغير. بعد أكثر من ربع ساعة سمحا لهما بالدخول لرؤيتها، احتضنت دارين الطفل وقبّلت رأس نرجس. كانت لحظة جميلة، أحضر فيها مالك الطعام والشراب للجميع. قالت دارين:

- ماذا ستسميه؟
- لا أعلم.
- سمه مالك.

نظرت نرجس إلى مالك، ونظر هو إلى دارين.

- أليس منقذك دوماً، سيغدو شبيهاً به يوماً ما.

خرج مالك من الغرفة وجلس في نهاية الممر. سألت نرجس:

- أمازلتِ مغرمة به؟
- لا، هو زوج أختي، لا يجدر بي أن أنظر إليه على أنه حبيب قديم، أريد أن أسألك سؤالاً واحداً يؤرّقني منذ مدة خلت.
- ما هو؟
- لمَ اتهمتِ مالكاً ذاك اليوم؟
- ربما ثأر دفين وانتقام من تيم حولته باتجاه مالك، ربما أردتُ أن أسقط غضبي على شخص تعيس الحظ لا ذنب له إلا أن القدر

جعله في طريقي، وربما لألفت أنظار تيم الله على أن هناك من سيتقبّل أمر الطفل بنفس راضية، ولأثير الغيرة عنده.

- والآن ألستِ خجلة من نفسك؟

- أتريدين أن تعاتبيني الآن يا دارين.

- أعتذر لك، لكن أردتُ أن أوصل لك فكرة غابت عن ذهنك، انتبهي إلى نفسك جيداً، فتيم الله شخصية نرجسية، سيعود إليكِ حين يجد نفسه قد تمّ تجاوزه بسهولة، سيعود حين يدرك أنه نُسي، يعود ليذكّرك بنفسه وليطمئن على مكانته في قلبك، فإياكِ وحسن الظن به.

ظلّت معها يومين تسهر على راحتها وراحة الطفل، حتى استعادت نشاطها وصار في إمكانها الخروج، جهزت دارين كل شيء وقالت:

- هيا بنا إلى البيت.

تلكأت قليلاً نرجس وقالت:

- هل يمكنك أن تغادري قبلي وتهيّئي البيت، هاك المفتاح، خذيه، سأبقى في انتظارك ها هنا.

غادرت الغرفة، راقبتها نرجس من النافذة، شاهدتها تغادر المشفى وتستقل سيارة أجرة، حملت صغيرها وخرجت ببطء وحيدة ليس معها أحد، أوقفت سيارة أجرة وأعطته عنواناً لا تعرفه، ظلت صامتة لا تفكر في شيء، واجمة، شاحبة الوجه، أوصلها إلى مبتغاها، مشت في طريق ضيّق، وقفت أمام مسجد صغير، انتظرت خلو الطريق من المارة، وضعت الطفل، ومشت بسرعة، دخلت أول زقاق صادفها واختفت في الحواري الضيّقة. وصلت إلى الشارع العام، استقلت سيارة أجرة أخرى وأعطته العنوان الصحيح. وصلت البيت منهكة متعبة، طرقت الباب، فتحت لها دارين، سألتها متعجّبة عن الطفل، ارتمت نرجس على الأريكة ولم تجب، جلست جوارها دارين وعادت تسألها:

- أين الطفل يا نرجس؟

- لا أريده أن يحيا كحياتي، لا أرغب أن يذكرني بما فعلت، سيبقى أهل الحي يذكرونه بأنه ابن غير شرعي، حتى وإن كبر فسينادونه بابن حرام.
- وترمين فلذة كبدك.
- لم أتعلّق به بعد، هكذا أفضل يا دارين.
- أنتِ مجنونة يا نرجس، أنا حملته يومين وتعلّقتُ به.
- اتركيني يا دارين، لن أربي طفلاً خانني أبوه.

لم تفلح معها أبداً، تركتها مصدومة مما فعلت، في كل مرة تفاجئها نرجس بما تفعل.

جاء مالك إلى بيته ومعه طفل صغير، ركضت رنا تسأله عن هويته، حسبته طفله، بكت قبل أن تفهم الحقيقة، صرخت أمه، تساءلت هناء، أجابهم بما رآه، صاحت أمه:

- وما دخلنا نحن لنعتني بطفلها.
- لأنني إنسان لن أدعه يعيش في الميتم، أو يأخذه أحد فيقسو عليه.

سألت رنا:

- أمازلت تكن مشاعر لها؟
- لم أفكر في هذا يا رنا.
- أأنتَ جاد في تربيته؟
- أترضين أن تكوني والدته؟

ابتهجت وسرّت، فكل ما يفعله مالك يسعدها.

- طبعاً أرضى.

حملته، وجلست تهدهده، سألت هناء:

- ونرجس؟
- لا أرغب أن يعرف أحد به.
- لكن دارين ستعرف،
- أخبريها ألا تخبر نرجس.

سمّاه شمساً لأنه أشرق في حياة ليست حياته، سرّت دارين حين رأته، واحتضنته، كل يوم تزوره وتلاعبه، ما عاد عشق مالك يعنيها، مع أنها تراه كل يوم، عادت نرجس إلى المعهد، تدرّس العزف على البيانو ورقص الباليه. الكل يتساءلون عن الطفل وهي تجاوب من يسألها بأنه مات في المشفى. وانطوت الصفحة ونسي الجميع ما حصل في الحي.

الجزء الرابع

جلس مالك وحامد في منتصف الليل، في حديقة منزل سهام، يدخنان معاً ويشربان الشاي. قال حامد:

- لينا متعبة جداً.
- لا أعرف ما أصابها، كانت بخيرٍ ذاك اليوم.
- لو زرتها لرفهّت عنها، فربما تتحسن حالتها بزيارتك.

نظر مالك إليه متعجباً، فأردف حامد:

- لينا يا مالك لم تكن تفكّر بالحب إطلاقاً، الطبيب منعها منه لأن قلبها ضعيف لا يحتمل ألم الحب، لكن سهام أصرّت أن تغيّر

الوقائع لصالح ابنتها، فلعبت لعبة خبيثة، أن تنقذك من نرجس وفي المقابل تجعلك زوجاً لابنتها، ظنّت أنها تفعل الخير لكليكما، لم تعرف بأن عقلك مشغول بغيرها، ولن تهيم بها، وفي النهاية تزوّجت ابنة الجيران.

– أنا فعلاً فكّرتُ في لينا أول الأمر، وجعلتها الخيار الأول، لكني صرفتُ النظر عن الموضوع كي لا أكرر الخطأ ذاته، تذكرت قول جدتي حين "لا تُدم النظر إلى الأعلى،" لينا تختلف عن نرجس، لكن سهام لن ترحمني. لم أعد راغباً في النظر إلى الأعلى.

أومأ حامد برأسه وشرب رشفة من فنجانه، أكمل مالك:

– أحببتُ رنا، أتعرف لماذا؟ لأنني عندها أعظم انتصار حصلت عليه، أنا أجمل انتصاراتها، تقبلني كل صباح باسمة، تسعد حين تراني، تتابعني بنظراتها أينما جلست، تلبي طلباتي وطلبات

والدتي، صديقة أختي، امرأة في نفس مستواي سترحمني وتشفق على ألمي، لن تقول لي إن المال من صنع يديها، بل تفرح ولو أطعمتها بضع لقيمات، أجدها شاكرة حامدة لله.

– أنا أفهمك يا صاح، نحن البائسين نفهم بعضنا جيداً، لكن قبل أن تذهب بالله عليك، اجلس جوار لينا قليلاً، اقرأ لها كتاباً ممتعاً، ابق الصديق الوفي لها، فلا دخل لها بأفعال أمها المجنونة.

دقّت الساعة الثانية صباحاً، شعر الاثنان بالدوار، كأن الأرض تحرّكت من تحت أقدامهما، نظرا إلى المنزل، كان يميل إلى اليمين وإلى الشمال، كاد أن يقع، وسهام تستنجد محاولة سحب لينا إلى الخارج، أسرع الاثنان، حملها مالك بسرعة، كانت فاقدة الوعي، لا تشعر بما حولها، خفيفة الوزن، فقدت وزنها في مرضها الأخير. وضعها في الحديقة وأوكل مهمة العناية بها إلى حامد لأن سهام كانت في حالة خوف رهيبة شلّت حركتها. هرع إلى حيّه، كانت الشوارع تضيق وتتسع،

الأبنية تتراقص، منها ما يهوي ومنها ما يصمد، صرخ الناس، استغاثت النسوة، بكى الأطفال.

لم تعد بيوتهم آمنة، الكل هربوا تاركين خلفهم ذكريات ووسائد وأسرّة ومشكلات وهموماً، بعضهم نسي مفاتيحه، وبعضهم أطفاله، وبعضهم هاتفه، أغلبهم يقولون نفسي، نفسي. اللهم سلّم.

لم يعرف عدد الساعات التي قضاها وهو يركض، يعبر من شارع إلى شارع، والأبنية جاثمة كالأشباح تصرخ بهستيريا، والليل يضرب بظلامه على الأرض التي تميد وتضطرب تحت أقدامه. أصبحت أرضنا هشّة بسبب الحرب وقسوة الإنسان.

وصل منهكاً، لم يتعرّف إلى حيّه، لم يجد أثراً للجدران، كان عبارة عن كومة حجارة، الحي قديم ومتهالك بسبب ضربات الحرب التي صدّعت جدرانه فهوت عند أول رجفة للأرض.

مشى داخله، فوق الحجارة، فوق بيوت كانت ملاذاً آمناً من بطش قنّاص يهوى اللعب بالأرواح، تأمّل النسوة واستمع إلى بكاء أطفالهن، نظر إلى قهر رجالهن، يبحث عن وجوه يعرفها ليعانقها، وجوه كانت له ملجأ وكان لها حياة.

حتى الموت لم يزر سوى حيّهم الفقير، جميع المصائب مسته بسوء وانهار الآن، وأهله تحت ركام الموت قابعون.

حجبت الدموع حروف الحزن، وجد نرجس واقفة تتأمل خراب بيت أحلامها، ودارين جوارها تبكي مصابها ومعها والدها ووالدتها، لم يجد هشاماً يستقبله بابتسامة حانية، كان بيته قد تقوقع على ذاته ولا أثر لباب الدكان. دخل حارته، اقترب مما كان بيته، لكنه لم يجده، كان عبارة عن حجارة فوق بعضها، لم يكن هناك أثر لساكنيه، لا يسمع سوى همسات الريح تناديهم أن يستيقظوا من تحت ركام الفقر والحرب، ليرحلوا إلى عالم لا فقر فيه ولا جوع. نظر حوله مرتعباً، أين هم؟ أين

رحلوا؟ ردت عليه الرياح بهمهمات ثم سكنت. لم يستطع دخول بيته مع أن المفتاح في جيبه. نادى عليهم، صرخ، استغاث، جلس على الأرض يبكي كالنسوة، لم ينتبه إلى حزنه أحد، الجميع في الحزن سواء، مصابهم واحد وألمهم كبير، كل ما فعلته الحرب لهم لا يقارن بما فعله الزلزال في دقائق قليلة.

في هذه الليلة انفتحت أبواب السماء وصعدت أرواح الكثيرين، منهم من كان مختبئاً تحت الطاولة، ومنهم نائم بأمان فوق سريره. نام الجميع ولم يستيقظ أحد. كل وعودهم التي أقسموا أن ينفذوها في الصباح لم تتحقق.

بحث بين الركام عن عائلته، ظنهم يلعبون معه الغميضة، فعلاً أجادوا لعبة الاختباء جيداً، وكان غيابهم قسرياً، وجوههم لم تفارقه، سعادتهم، انتظارهم إياه على عتبة الدار.

تتالت أصوات الناجين من تحت الركام تصرخ وتستغيث، وهو يبحث عنهم، يحمل حجراً ويرمي آخر، يناديهم ويصغي السمع فترد عليه الرياح الصاخبة، يعاود نبش الركام، لكن من أين يبدأ البحث؟

جاءت الآليات لإنقاذهم، المعدات بسيطة لأن الحي ضيق ولا تستطيع آلية كبيرة أن تدخل إليه.

الجميع في الحي أعلنوا الحداد، شارك الرجال فرق الإنقاذ في الحفر، كل العائلات مكلومة. أُخذتْ النسوة والأطفال إلى مراكز الإيواء. وهي عبارة عن مدارس قديمة قد تصدّعت جدرانها بفعل الحرب والزلزال، جلست النسوة يشتكين ويبكين.

ظلّ مالك يساعدهم في الحفر متأملاً أن يكون أهله من الناجين. أول يوم لم يخرج من داره أحد، أرهف السمع لعلّ هناك من يصرخ، أو من ينتظر عودته، لا يسمع سوى أصوات الآليات الثقيلة وصراخ عمال الإنقاذ.

في اليوم الثاني كانت أعداد الموتى بالمئات، حُصروا بأرقام مجهولة، ووضعوا في أكياس بيضاء جوار بعضهم، كي يُدفنوا في مدافن جماعية، اختفت أسماؤهم، اختفت حياتهم، لم يعد لهم وجود، منهم من كان يشاهد التلفاز، أو نائم يحلم بغد أفضل، منهم من ينتظر الكهرباء، وهناك من كان مريضاً، أو من كانت تنتظر رسالة من أحدهم. ظهرت يد صفراء شاحبة، صرخ هو، اقتربوا منها وبدأت عملية حفر لانتشال الجثة، كانت تحمل وليداً صغيراً تحمي رأسه بيدها. كانت جميلته ((رنا)) التي لم يهنأ معها ولم يتعرّف إليها بعد. ضمها إلى صدره، ناداها أن تفيق من نوم يطول، اعتذر لها لأنه لم يكن موجوداً لحمايتهم، كانت في عالم آخر لا تسمع فيه همس الأحياء. أخذوها منه، وضعوها بجانب الآخرين، وبجانبها طفل ليس وليدها. أكملوا الحفر والموت حتى صار عادة لهم، يعملون ولا يتأثرون ببكاء إنسان أو بفقد أحدهم.

كان ينام على الركام في انتظار أن تصحو والدته وتعنفه على النوم على الأرضية الباردة، بانتظار أن تصحو هناء وتجلب له بطانية. لم يعد يريد من الحياة شيئاً سوى عودتهم أحياء.

بكت دارين ووالدتها ووالدها ابنتهم رنا، فواساهم الجيران المكلومون، عانقت نرجس دارين وبكتا معاً. كانت نرجس خائفة من الهزات الارتدادية، تشعر أن الموت بات قريباً منها.

في اليوم الثالث تضاعفت أعداد الجثث، وتضاعفت أعداد النساء المكلومات، تزايد النواح والعويل. جاءت فرق إنقاذ أخرى تُسهم في العمل، ومالك لا يكلّ ولا يمل، لا يأكل إلا الشيء اليسير. أزالوا حجراً كبيراً فظهر رأس والدته مهشّماً، صرخ بهلع، أبعدوه، ناح لفقدها، حملوها، ركض إليها يمسح الدم المتجمد عن رأسها، قبل يدها، وهو غارق في تقبيلها أخرجوا أخته من نفس الحفرة، كل الوجوه التي يخرجونها تكون فزعة مصابة بالهلع.

ترك الحفر بعد أن ودّع جثتي أمه وأخته ومشى بألم، كأنه تحت تأثير مخدر، الكل يعملون، والكل يبكون، والكل يصرخون، وهو يمشي منهزماً مقهوراً متألماً.

جلس جوار نرجس وخبّأ رأسه في يديه، واسته بكلمات مقتضبة، ظل ساكتاً في عالم آخر، سيمرّ العمر ولا تختفي هذه اللحظة من أذهان الكثيرين.

مرت الأيام والجثث تتزايد والتقاويم المرمية على الأرض تشير إلى تاريخ تلك الليلة، ساعات اليد في معاصم القتلى تشير إلى لحظات الدمار الرهيبة التي طالت أحياء المدينة وغيرها من المدن المفجوعة.

لم يقم عزاء لإنسان، ولم يعزِ أحد بأحد، العزاء كان جماعياً، فلا تسمع إلا كلمة البقاء لله، تزايدت أعداد المفقودين ومنهم هشام لم يعثر أحد عليه، الجميع يتمنون أن يشمل أحبتهم الفقد لا الموت، لكن في هذه

اللحظة لا أحد يعلم نصيبه، فالموت قد توزع والفقد والنجاة والخوف والألم، وهناك من خرج بعاهة دائمة.

مرت الأيام تطوي بعضها، تطوّع مالك مع الهلال الأحمر ليسعف المرضى ويداوي الجرحى، فقد درس في مدرسة التمريض، الشهادة التي أخفاها عن الجميع ليكون جديراً بنرجس، فذهب الجميع وبقيت نرجس والشهادة.

ابتسمت له نرجس، أصبح رجلاً يليق بأي أنثى، رغم جرحه النازف فهو يبتسم لهذا ويضحك لذاك.

مرت الأسابيع وقليل من الشهور، جلست نرجس ودارين على مقعد في الحديقة العامة، وجاء مالك فجلس بجانبهما. وتحت ظلمة ليلٍ لا يرحم جلس الثلاثة يتحدثون عن الشقاء والألم. قالت دارين:

- حدثينا يا نرجس عن كل ما نجهله في أمرك.
- ستؤلمك حكايتي.

- لا شيء أشدّ ألماً مما مررنا به.

تنهدت نرجس، تأملت نجوم الليل، بحثت بعينيها عن القمر، كان ينصت إليها باهتمام. انسكبت دمعتها من عينها، مسحتها وقالت بألم:

- لا أعرف أين جئت إلى هذا العالم ومتى وكيف، فتحتُ عينيّ على أمي سهام، كنت أدعوها بهذا، فلا أعرف لي أماً غيرها، لم أكن أعلم بأنني لستُ طفلتها، وأنها جلبتني من الميتم لتصير أماً لي، لأنها لا تنجب. كنت في الثانية من عمري، لا أتذكر هذه اللحظة، أذكر أنني كبرتُ في حبهما هي وزوجها وصفي، كان رجلاً حنوناً لطيف المعشر، لكنه يخافها ولا يرفض لها أمراً. كنت مدللتهما، أرتدي أجمل الثياب، وآكل ما أشاء وأرغب، ابتاع ما يحلو لي من ألعاب. أحبوني لا أنكر ذلك، بالغوا في تدليلي، لم أكن أعرف بأنني متبناة، لأن سهام كانت تمارس أمومتها برقة

وحنان، ووصفي كان أباً حانياً، شاركاني كل نجاح لي في المدرسة. لكن سنوات الهناء كانت قليلة مقارنة بأيام الشقاء.

حين أصبحتُ في التاسعة من عمري، حملت سهام، فرحنا لها كثيراً، عانقتني قائلة إنها ستجلب أخاً ألعب معه، أخبرتها أنني سأقاسمه ألعابي وكتبي ووسادتي وسريري، سألاعبه وأطعمه وآخذه معي في رحلات المدرسة. صرت أجلب ما يحتاجه من مالي الخاص الذي يمدّني وصفي به. كان يضحك هو وسهام مني وأنا سعيدة بما أفعله.

ولدت سهام، لم يكن المولود صبياً كما حلمت بل طفلة. وبدأ الفصل الثاني من حكايتي، تغيّرت حياتي، بدأت سهام تبتعد عني، زاد انشغالها بأمر الطفلة، وزاد اهتمامها بها، أصبحتُ غير موجودة. آكل وحدي، ألعب وحدي، أستحمّ وحدي، أدرس وحدي. لم تعد تشاركني اهتماماتي، ووصفي قلما يكون في المنزل.

صرتُ غريبة عنهما وعن المنزل كله، ثم مع الأيام بدأت تمنعني من الاقتراب من طفلتها، وتعنّفني كلما رأتني جوارها.

باتت سهام تكرهني وتحبّ ابنتها، حتى جاء ذاك اليوم الذي قالت فيه إنها ستعيدني إلى مكاني الأساسي. لم أفهم في البداية، لأنني لا أعرف مكاناً غير هذا المكان، جهزت حقيبتي وحدي، اعتقدت أننا سنذهب معاً. تركت طفلتها مع زوجها وقادتني إلى سيارتها، وضعت الحقيبة في صندوق السيارة، وأجلستني في الخلف، أول مرة لا تجلسني جوارها. كلما هممتُ بسؤالها إلى أين نذهب؟ تأمرني بالصمت، اجتاحني خوف وقلق كأي طفلة تكاد تخسر والديها. حين نزلنا من السيارة، وضعت يدها على كتفي وقالت "هنا مكانك الأساسي، ما كان يجدر بي أن آخذك من هنا، أنا مخطئة في ذلك، لا أستطيع أن أقسم الحب بينكما، سامحيني على ظلمي إياك" أعطتني ورقة وطلبت مني أن أعطيها إلى مديرة الميتم.

تركتهما وسارت إلى الأمام، ثم استدارت إليهما.

– لمَ لمْ تقم وزناً لأفعالها، صرختُ حينها باكية، تمسكتُ بتلابيب ثوبها ألا تتركني، أخاف الحياة دونها، أخبرتها أنني لا أعرف سواها ولا أعرف هذا المكان، سأكون خادمة لها، توسلت إليها كثيراً. ظللتُ أبكي على عتبة الميتم، غادرتني بقلب بارد وتركتني بنصف روح، تركتني أبكي يتمي الجديد. طرقتُ الباب، فتحه لي رجل في الخمسين، قدمت إليه الورقة دون أن أفتحها، كنت ما أزال أبكي فراقها، أدخلني وقدمني إلى المديرة. كانت امرأة بدينة لا روح فيها ولا حياة، خلعت نظارتها، وقرأت ما كتبته سهام. حوقلت وتأملتني جيداً، لم تسألني شيئاً. لم يعانقني أحد، ولم يمسح دموعي أحد، لم يحادثني أحد فيطمئن قلبي. لم تكن أيديهم مبتورة كان إمكانهم معانقة طفلة خائفة. نظروا إلي كأنني رقم جديد يضاف إلى سجلاتهم. ساقوني إلى غرفة فيها أطفال يمرحون، نظر الأطفال إلي كأنني قادمة من كوكب آخر، لم

تقترب مني أية طفلة، لم تواسني أم من الأمهات، تركوني لخرابي أشدّ شعري وأصرخ، ولم يسمع صراخي أحد، كأنهم اعتادوا القسوة حتى تعايشوا معها وألفوها. شعرتُ بألم القطة التي يربيها الإنسان ثم ما إن تصبح قادرة على الأكل وحدها حتى ترمى في الشارع.

اقتربت منها دارين وعانقتها، وبكتا معاً، كان مالك يعرف كل هذه القصص، لذلك ظل يستمع دون أن ينبس ببنت شفة، قالت دارين:

- وماذا بعد يا نرجس؟
- أكملتُ إنجازاتي وحدي، لم يحتفل معي أحد بتخرجي في الإعدادية، احتفلت وحدي حين تخرجت في الثانوية، رقصت، بكيت، غنيت، حزنت، عزفت، تألمت وحدي، لم يحبني أحد، لذلك أحببتُ نفسي فهي الوحيدة التي لم تتخلَ عني، في كل مراحل حياتي كنت أسند نفسي بنفسي.

كانت تمدّني بالمال عن طريق رجل لا أعرفه، هو من ابتاع لي المنزل، كان يستمع إلي كثيراً، كانت دمعتي لا تنسكب إلا في حضوره، كنت أشاركه كل لحظاتي كأنه أنا. أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- لأنه غريب سيرحل يوماً ما ويأخذ ضعفي وحزني معه، ومع ذلك لم يرحل، ظلّ جواري، كنت أغيب عنه وحين أعود يأتي ويجلس قبالتي، يستمع إلى حزني ويرحل.

- لم أكن على علم بما مررتِ به، كنت أراك نرجسية أنانية مغرورة. لكن لا أحد منا يعرف حجم الألم الذي عايشته في صغرك.

وقف مالك قبالتهما وقال:

- ما رأيك أن نذهب إلى سهام، لتنتصري على شبح الماضي.

- لا أريد، حاولت لينا كثيراً أن تعيدني إليها، لكني كرهتُ لينا من أعماق قلبي، قد تخلّت عني بسببها.

عاد الجميع إلى الغرف، ظل مالك يفكّر بمأساة نرجس، استذكر لينا وكيف تركها غائبة عن الوعي، منذ تلك اللحظة لم يعرف عنها شيئاً، اتصل بحامد ليطمئن عنها، كان الليل يواصل زحفه البهيم باتجاه ضوء يبزغ في الأفق، جاء صوته ناعساً، قال:

- أيعقل أن يتصل أحد في جوف الليل؟
- أعتذر لك يا حامد، لكني رغبت بالاطمئنان على لينا.

لحظة صمت مرت من الطرف الآخر، ثم أجاب حامد بهدوء:

- لمَ الآن؟ لقد مرّت شهور على تلك الليلة.
- لك حق، لكنك تعرف حجم مصيبتي، أنا أعمل ليل نهار في مساعدة المتضررين من الزلزال.
- لينا ماتت.

صمتٌ مريعٌ مرّ، بُهتَ مالك، صاح:

- ماذا.

- ماتت في تلك الليلة، لم تكن حينها غائبة عن الوعي، بل توقف قلبها جراء الهلع الذي أصابها.

حوقل مالك واعتذر لغيابه عن الساحة، ثم سأل عن أحوال سهام.

- تبكيها ليل نهار، ثم تطلب مني إيصال وصية لينا إلى نرجس.
- وما وصيتها؟
- أن تعود إلى البيت في حال موت لينا.
- لن تقبل نرجس.
- لذلك لم أطلب منها.

أقفل مالك الخط، ظل ساهراً طوال الليل، في الصباح أحضر الطعام لنرجس، وجلس جوارها، اعتذرت عن ما سببت له من أذى، ظل صامتاً، ثم أخبرها بما سمعه من حامد. سكتت نرجس، فالسكوت في حضرة الموت احترام. ثم قالت:

- الموت صديق جيد لنا نحن، أغرم ببلدنا، فطابت له المعيشة عندنا، مع أننا في بلد لا يطيب العيش به، حروب ودمار، كوارث، فقر، لا كهرباء، بنى تحتية مدمرة، لا ماء، لا رفاهية. لا شيء سوى الموت يطوف بنا، والجميع يقول بلسان واحد لكل إنسان مات _ارتاح من هذه العيشة_
- الحياة هنا تشمل الكل، لستِ وحدك من تتحملين العيش هنا. المهم وصية لينا كانت أن تعودي إلى هناك.
- إلى سهام.
- أجل.

أسند ظهرها إلى الجدار وتنهدت.

مرّت سنة على الحادثة، استطاعت نرجس أن تحجز لها في الحياة مكاناً، عملت في الميتم ذاته الذي بدأت به، كانت تعلّم الطالبات العزف والرقص والغناء، أُعجبت بعملها الجديد، كانت تشعر بسعادة وهي

تستمع إلى قصص الأطفال وترى ضحكاتهم. وذات نهار زارها مالك، وقفت وإياه يراقبان الأطفال، قالت:

- أتعرف يا مالك؟
- نادمة لأنني خسرتُ طفلي، لو عرفتُ أن الأمور ستؤول إلى ما هي عليه اليوم ما كنتُ فرطتُ به. أحياناً أبحث عنه بين الأطفال، لا أظن بأنني سأعرفه، ولكن قلبي سيدلّني عليه. ندمتُ لأنه سيعيش كما عشتُ أنا. لم أفكّر إلا في ذاتي ومستقبلي. لم أفكر بمستقبله أبداً.
- لقد مات يا نرجس.

فغرت فاهها دهشة، سألته:

- كيف عرفت؟
- مات مع عائلتي، كانت رنا تحتضنه، أخذته حين رميته أنتِ، كنت أعرف قصتك، قصّها لي حامد، لذلك ما أردتُ أن يعيش

ابنك كما عشت أنتِ، عرفتُ أنك ستهربين من القصة بنفيه خارج حياتك.

- من يكون حامد؟
- الغريب، المتسوّل، حامد، كلهم نفس الشخص.
- هل الغريب هو المتسول؟
- أجل كان يراقبك ليحميك، لكنه عجز عن حمايتك من نفسك.

تركها ومشى ولم يلتفت إليها.

جاءت دارين تزورها فأخبرتها نرجس بما حصل، قالت:

- لم أكن أعرف أن ابني قريبٌ مني لهذه الدرجة، كان يقطن الحي ذاته، ويستمتع بالهواء ذاته. لو ظلّ ولم يمت. لو بقي لي ولم يغب.

سكتت دارين لأنها تعرف كلّ شيء، كانت تحب طفلها وتلاعبه، ثم قالت:

- لا ترفضي الحياة يا نرجس، إذا قدمت لك الحياة فرصاً جديدة فاغتنميها ولا تهربي منها. إن جاءك مالك خاطباً فتزوجيه.

نظرت إليها دهشة.

- لا تنظري لي هكذا، صدقيني يا نرجس، أنا خسرته في اللحظة التي رأيتُ لمعة الحبّ في عيني رنا. لذلك اقتلعته من قلبي، وانتصرتُ على حبه.
- لكنه انتصار حزين يا دارين.
- ثمة خسارات نحسبها انتصارات حزينة، موافقة أن أخسره مقابل ألا أخسر عمري. فإن جاءك خاطباً فلا ترفضيه.
- وأنا خسرتُ يا دارين، كانت خساراتي متتالية، وكان الحبل قصيراً للغاية، فلم أستطع أن أتمسّك بشيء. الآن أوقفتُ السعي فقد فقدتُ الرغبة في المحاولة والاستمرار.

- معك حق، ظننتها أياماً وتمضي، وأعيش الحب الذي كنت أحلم به، لكن حين استيقظت كانت حياتي قد مرّت من أمامي، احتضنتُ وجعي في قلبي دون أن يدري أحد به. في الوقت الذي كانت رنا تعيش الحب سعيدة كنتُ أشكو الحب متألمة، لا طاقة لي بحبه من جديد.

غادرت مسرعة، لحقت بمالك، جلست جواره في الموقف، لم يصعد إلى الحافلة، كان فقط يتأمل الركاب وهم يصعدون وينزلون. قالت له بعد دقيقتين من الصمت:

- الآن حصل ما كنت تصبو إليه، نرجس عادت فتاة عاقلة، تبحث عن السعادة والحياة الهادئة المطمئنّة، لم يعد لها أهل سوانا، ولم يعد لها صديق سواك، فأكمل الحب بينكما ولنعقد الفرح في الحي من جديد.

تطلّع إليها وابتسم، أمسكها من يدها وقال:

- وأنت؟

ارتبكت واحمرتا وجنتيها، قالت:

- أنا ماذا؟
- لستُ غبياً يا دارين، أعلم بحبك وغرامك، كنت أرى توهج عينيك بنور الحب، وهناء كانت دائماً ما تحدثني عن غرامك.
- ولمَ لم تمشِ خطوة واحدة في دربي؟
- لأنك كنت عاشقة بأجنحة نارية، وأنا لم أكن لأجاريك عشقك، في البداية كنتُ مغرماً بنرجس، وبعدها لم أستطع تقبّل غرامك، لأنك رقيقة أخشى أن أجرحك، أو أمطرك بعذاب من الألم لا تقوين على صده.

حاولت سحب يدها من يده، لكنه لم يفلتها، كان ينظر إليها كأنها أعظم انتصار يناله، قالت دون أن تنظر إليه:

- وأنا أرفض عشقك، كنت تنظر للأعلى، وكنتُ أسفل منك، تمنيتُ أن تراني ولو مرّة، لو وقعت فكة من يدك وهممت بالتقاطها، ربما كنت رأيتني، لكنك كنت كنرجس، أعجبكما النظر للأعلى، لا أنت اغتنمت ولا هي كذلك. وحين رغبتَ أن تختار واحدة مثلك، اخترت من لا أطيق كرهها، كان الألم عظيماً لا يحتمل. أنت جربت ألم الحب، فأقسمت أن تذيقني إياه أضعافاً. أكرهك يا مالك.
- سأحاول من جديد وسأكون لك كما ترغبين.

سحبت يدها من يده، وركضت إلى نرجس، تشكو لها حباً أتاها في زمن لم تعد تنتظره، جلست جوارها على العشب ونفسها يعلو ويهبط. قالت نرجس:

- أحبيه يا دارين، عيشي معه الهوى الذي كنتِ به تحلمين.
- وما أدراك أنتِ؟

- أخبرني بما ينتويه، مالك لن ينسى ما فعلته أنا معه، وما فعلت أنت له. ها قد انتصرتِ وكان انتصارك سعيداً.
- أرغب بالركض ألف عام بعدد خيباتي التي تلقيتها منه.
- أرغب بالركض مئة عام بعدد الخسارات التي خسرتها. أموافقة أن تعيشي الحب من جديد مع من كان لك حباً وغراماً؟

أومأت برأسها والدموع تطفر من عينيها. أمسكتا أيدي بعضهما وركضتا. تلك تبكي سعادتها والأخرى تبكي خسارتها.

تمت

٢٠٢٣/٧/٣

من رحم الألم يولد الإبداع